رواية

سُكْنَايَ

تأليف

رحاب إبراهيم

باقي
للنشر والتوزيع

المدير العام / أسماء محمد نافع
مدير النشر / محمد عبدالرازق

رواية: سكناي

تأليف: رحاب إبراهيم

مراجعة لغوية: مها السيد

التنسيق الداخلي: صبرينة غلمي

تصميم الغلاف: إيمان صلاح

رقم الإيداع: 7616

تدمك:978/977-6718-03-6

جميع حقوق محفوظة ©
لا يجوز، دون الحصول على إذن خطي من الناشر،
استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا المصنف، أو استنساخها
أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة
إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام
أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any electronic or mechanical means, including information storge and retrieval systems, without permission in writing from the publisher,except by reviewers, who may quote brief passages in a review

المقدمة

موكب الألم يحط على مرفأ النفس ،ويتغلغل في سويداء القلب..

ليأتي هتاف التمرد من بعيد ويقابله ضعف الأنين ...الحزين

ويطفو الهتاف بقوة سرعة الصوت على سطح النفس، وينثر دماء الضعف بطبقةٍ سميكة يتأسس عليها التمرد ويتربع، ويزدري رقة المشاعر ، ويحيك رداءً جديداً لصوت النفس العنيد، لفتاة

كان حلم سندريلا يحلق في سماء قلبها ، كان هذا أرق "أحلامها "

لتشاء الظروف أن تحققه ولكن برداء الخوف وبين ليلةً وضحاها... أصبح الرداء ..."لسندريلا الانتقام"

اينتهي الآمر إلى هنا ؟

أم إن حفل الآمير الشهير ينتظر ظهور السندريلا؟

الإهداء.....

إلى أبي الغالي.... لطالما حلمنا معاً بتحقيق هذا الحلم ..ولكن أتى الحلم وتحقق... ورحلت أنت... رحمك الله وجعل مثواك الجنة...

إلى أمي.. سند القلب... إلى من تحت قدميها جنتي.... حفظك الله لي دائما... أعشقك أمي

إلى من يقرأ كلماتي.... أعدك أنك لن تقرأ بعينيك فقط... بل ستقرأ... بقلبك أيضاً....

رحاب إبراهيم

الفصل الاول

" الرسام المشهور ومذكرات فتاة مجهولة "

تَرَجَّل من السيارة بخطوات هادئة، ووقف بقامته الطويلة، نظر للمكان جيدًا؛ ليرى أجمل منزل شاهده في حياته حتى الآن، وسط سكون غريب للأشجار الملتفة حوله وخُلو المكان من المباني المنشأة إلا هذا المنزل، مثل ما أراد تمامًا، هدوء تام.

أقرب منزل إلى هنا يبعد بحوالي ١٠ دقائق بالسيارة، ويبتعد المنزل عن الشاطئ عدة أمتار، يفصلهما رمال داكنة اللون، لتمتدّ إلى الشاطئ بنعومة ساحرة، وتمتزج المياه معها بعد اندفاعها بقوة بصخورٍ قريبة.

اِفْتَرَّ ثَغْره عن ابتسامة خفيفة بعد أن شعر بدق أوتار شِعرية جميلة بداخله لِمَرْأى هذا الجمال.

هدوء أواخر الشتاء الرائع سَلب لُبه، و زقزقة العصافير التي تُحَلِّق بحُرية على النوافذ تَشْجو القلب، والأشجار المائلة على كل من جانبيه تُناشد الطيور لمزيدٍ من التغريد، ابتسم وقال:

- أتمنى هذا الهدوء الرائع يساعدني على ابتكار فكرة آخر لوحاتي.

أخرج السائق الخاص به الحقائب من السيارة.

ثم قال له:

- سَأُدْخِل هذه الحقائب إلى المنزل سيدي.

رد راكان بهدوء يتماثل مع السكون حوله:

- اترك الحقائب لي، وعُدْ بالسيارة واتركها في الجَرَاج الخاص بقصري، وطمئن أبي وأمي عليّ كثيرًا، وأخبرهم أنني سأعود بمجرد انتهاء لوحتي، الطريق طويل، انتبه جيدًا.

ردَّ السائق وهو يهز رأسه بالإيجاب، وقال:

- أمرك سيدي.

غادر السائق بالسيارة، وترك راكان شاردًا في رَوْعَة هذا المنزل، فهو يعيش في قصر فخم، ولكن الفنان بداخله يريد التأمل والهدوء، البساطة والرقي في آن واحد وهذا المنزل بروعته وهدوئه يَفُوق رَوْعَة قصره بفخامته وغِناه.

أمسك بكلتا يديه الحقائب وجرّها خلفه، وخَطا إلى الداخل، وقف أمام باب المنزل مباشرةً، وترك مقابض الحقائب، ثم لمس أطراف مِعْطفه الأسود الطويل وأخرج من جيب داخلي ميدالية بها عدة مفاتيح، تحيَّر وهو ينظر لها، فأي منهم المفتاح الصحيح؟!

لم يَقُل له مالك المنزل!!، فأعطاه المفاتيح فقط بعد الاتفاق على تأجير هذا المنزل لمدة شهرين.

اختبر اثنين منهما وفشل، وبقي الثالث، فتح الباب به، ابتسم راكان وهو يدفع الباب ويفتحه على مِصْراعيه، ليفاجأ بسلام غريب طَفا بداخله،

ورائحة خلَّابة تهبُ من الأغصان القريبة من جميع النوافذ التي تملأ الحوائط، والستائر المتدلية بنعومة واختيارها اختيار أُنْثَوي بَحْت.

الأثاث جميعه مصنوع من الخشب الحديث، ولا يوجد أي طِلاء على الأثاث، مما أعجبه هذا كثيًرا.

شعر بأن روحًا ملائكية تَهْفو حوله، وكأنه في حُلم جميل لا يُصَدَّق.

أخذ حقائبه ودخل بوجه مبتسم وسعيد بأكثر شيء مناسب لِمَا أراده، لابد أن يتصل بصديقه عامر ويشكره على اختياره الرائع له، فهذه الروعة أكثر من وصف صديقه بكثير.

نظر إلى الممر الطويل الذي ينتهي بسُلَّم يتوسط المكان برُقي، ويؤدي إلى الطابق الثاني، تقدم راكان وأحدثت أقدامه " طرقعة " خفيفة على السُلَّم، ولمح من بعيد المسند الخشبي للوحاته مستندًا على الحائط، فهو قد أرسل عدة أشياء إلى هنا قبل المجيء بيومين وهذا المسند من ضمنهم.

شاهد ثلاث غرف صغيرة بالطابق الثاني، وغرفة بعيدة مُطلة على واجهة المنزل من الخارج، أخذه فضوله إليها، فتح الباب ليرى غرفة كبيرة فارغة من الأثاث تقريبًا إلا مقعدين بجانب الشرفة.

ابتسم وقال:

- إذاً سيكون هذا مَرْسَمِي ، وردد بابتسامة وإعجاب وهو

يتأمل:

- مناسبة تمامًا.

وانتبه لزقزقة العصافير قرب باب الشرفة، استنشق الهواء بقوة وهتف بحماس: فلنبدأ العمل.

بعد مرور بعض الوقت قد رتَّب كل شيء، أفرغ محتويات حقائبه في الخزانة الخاصة بغرفة النوم، وملأ أدراج البراد في المطبخ بأطعمة مختلفة، ونقل المسند الخشبي للمَرْسَم العُلوي، وثبّت لوحةً بيضاء عليه لحين البدء، ولكن لاحظ خلخلة إحدى زواياه، قال بعبوس:

- ليس وقتك الآن !!!

استمر يبحث عن مسامير ووجد واحداً بأعجوبة ،ولكن لم يجد مِطْرقة، بحث عنها في المنزل بأكمله، إلا غرفةً واحدة.

أخذ ميدالية المفاتيح، وحاول أن يفتحها، وفُتحت من أول محاولة وكأنها ترحب به وتدعوه بالدخول.

نظر للغرفة جيداً، وأحَّس بشيء غريب انتابه، نفَّض أفكاره وتحرك؛ ليبحث عن مِطْرقة أو أي شيء صلبٍ، لم تكن الغرفة خالية، ولكنها ليست مُكَدَّسة بالأثاث أيضًا، فيها خزانة ملابس صغيرة وسرير فقط.

بحث في الخزانة وأسفل السرير أيضًا، ولم يجد شيئًا.

رفع قدميه على حافة السرير؛ ليبحث فوق الخزانة، ومرر يده حتى يجد

شيئًا، وبالفعل وجد مِطْرَقة حديدية مُلقاة بإهمال، حسنًا تَفِي بالغرض، وكاد أن ينزل على الأرض مجددًا، وهو يقبض على مُقدمة هذه المِطْرَقة، حيث تعثرت يداه بشيء.

نظر باتجاه يديه ولمح حقيبة " أجندة " صغيرة ذات طابع أُنثوي.

أمسكها وهو ينزل بقدمه على الأرض، ونظر لها بتفحص.

خرج من الغرفة وبيده المِطْرَقة الحديدية والحقيبة الصغيرة وصعد إلى

مَرْسَمِه، وضع الحقيبة جانبًا ؛حتى أصلح مسند اللوحات بعد دقائق، وجلس وهو يتنفس بارتياح، كان بجانبه طاولة صغيرة قد أتى بها؛ ليضع عليها أدواته الفنية.

نظر للحقيبة نظرة طويلة ثم أخذها، وفتح قفلها الجانبي؛ ليشاهد دفتر ملاحظات فتح أول ورقة وكانت تَنص على الآتي:

مذكراتي الخاصة

قفل الدفتر مُرْغَمًا وهو يشعر بالفضول لقراءة المزيد، ولكن احترامًا لخصوصية صاحب هذه المذكرات لن يقرأها، ذهب ليحضر فنجان قهوة وأتى مجددًا؛ ليبدأ نقش أفكاره الأولية لهذه اللوحة المحيرة، لوحاته جميعًا لم يحيروه كهذه اللوحة.

لم يجد فكرة تعجبه بعد، ارتشف قليلاً من القهوة، وأمسك قلمه وبدأ، بعد فترة أخذ اللوحة ودفعها بعيدًا بعصبية، لم تَرُوقه فكرتها؛ اصطدمت يده بالحقيبة وسقطت على الأرض، واهتزّ فنجان القهوة الذي ترنح حتى تمايل جانبًا على طبقه، ووقعت الحقيبة التي تركها مفتوحة قبل أن يبدأ

رسمه، انحنى ليلتقطها من على الأرض، ولكنْ لاحظ شيئًا جعله يأخذه بيده ويُمْعِن فيه النظر، فُتحت بالصدفة بسبب السقوط على الورقة التالية، وقع نظره على أولى أحرفها التي بدأت في تشكيل أولى خطا العشاق.

أنا سُكنان

أطرف راكان بعينيه وهو ينطق اسمها ببطء.

سُ ك ن ا ن، سُكنان

ثم قال بإعجاب: لأول مرة يُصادفني هذا الاسم ولكنه يعجبني كثيرً، إنه رائع ونظر لحقيبة المذكرات ومَدى أناقتها، ثم قال:

- يتملَّكني الفضول؛ لأعرف ما تحتويه هذه المذكرات، فبالتأكيد ستدهشني هذه الفتاة مثل اسمها.

وبدأ في القراءة مع أولى سطور هذه المذكرات.

أنا سُكنان

(عزيزي القارئ إذا كنت تقرأ هذه الكلمات فإذن أنا قد فقدتُ مذكراتي الخاصة ، فبحق الله إذا أخذك الفضول لتقرأني، وتقرأ ما عانيته فعِدْني أولاً أن تحفظ أسراري

رد راكان بتأكيد: أعدُكِ ،أعدُكِ يا فتاة.

وأكمل قراءة:

(وأمرٌ آخر، أريدك أن تَعِدَني أن تقرأ كل كلمة ولا تنتقل الى آخر معاناتي في الصفحات الأخيرة قبل أن تقرأ كل ما مررت به.

لعلك تخرج بشيء مما قرأته .

مع العلم أنني قد بدأت هذه المذكرات بقلمي ولكنْ لا تفاجأ في النهاية أنَّ أحدًا أكملها عني، وقد انتقلتُ أنا إلى عالمٍ آخر ،حبًا في الله... عِدْني)

تملَّكهُ الفضول أكثر وهو يتعجب من هذه الفتاة، وقال بِريبة

- أعدُكِ.

ولكن أتاه اتصال هاتفي في هذه اللحظة، نهض إلى الهاتف؛ ليشاهد الاتصال باسم صديقه عامر وهو أيضًا زوج شقيقته.

أجاب مُرحِّبًا: أهلاً عامر، كيف حالك يا رجل؟

عامر بمرح: بخير ،هيَّا أخبرني هل أعجبك ذوْق شقيقتك؟؟

ابتسم راكان بمحبة وأجاب:

- كثيرًا، ذوقها دائمًا راقٍ.

عامر بضحكة وثقة: هذا أكيد ،فأنا مثال أمامك يؤكد ذلك.

شاركه راكان المرح وهو يهبط للطابق الأرضي، ودخل المطبخ في الزاوية، وأجاب وهو يَرْمُق محتويات البراد:

- هل تعلم أنني شككت في بادئ الأمر أن هذا ذوقك، فأنا أعرفك حق المعرفة ولم أتفاجأ بقولك إنه اختيار سوزانا.

عامر بتذمر امتزج معه نبرة مرحة:

- حقًا؟ ولكنّي لن أجيبك الآن، سأُجيبك عندما تلتقي بفتاة أحلامك وستعرف جيدًا أن الاختيار متروك لهُنّ في كل شيء، لا أفاجئك إنها ستَعِد عليك حتى أنفاسك وتابع بقهقهة:
- كم سأشمت بك يا راك.

ابتسم راكان لمزاح صديقه ،وأخرج علبة جبن محفوظة من البراد، ووضعها على رخامة المطبخ، وأكمل حديثه بثقة:

- راك سيُريك كم هو صُلب، وعنيد ولن يرْضَخ لامرأة أبدًا.

عامر بمكرٍ وتحدّ:

- تعدني

راكان:

- بالتأكيد، أعِدُك.

عامر:

- مضطر أن أقفل معك الآن ؛لأذهب إلى حفلة ابني المدرسية، سوزانا ستقتلني إنْ تأخرت أكثر من ذلك.

راكان بضحكة:

- أرسل لهما قُبُلاتي حتى اللقاء القريب.

عامر:

- بالطبع، إلى اللقاء.

انتهى الاتصال، وابتسم وهو يتذكَّر كم من وعدٍ قطعه اليوم!

أعدَّ بعض الأطعمة السريعة ومعها فنجان قهوة، وذهب إلى المَرسَم مرة أخرى.

جلس على مقعده أمام المسند الخشبي، ووضع طبق الطعام وفنجان قهوته على الطاولة، والتقط دفتر المذكرات.

وبدأ في القراءة وهو يقضم قطعة من الخبز المحشو بالجبن الأبيض.

وارتفع أحد حاجبيه عجبًا وهو يقرأ أول جملة في الصفحة التالية للصفحة التي لقّبَها بصفحة الوعد، لتأتي صفحة "نَصُ الوَصِية"

الفصل الثاني

"نص الوصية"

تحت إخضاعي لوصية أبي الراحل ،أُمِرتُ أن أعيش مع قريبٍ لي كُنتُ أناديه بعمي ، له زوجة وثلاثة أولاد أوسطهم كان نفس عمري تقريبًا ، ورغم أن عمري تجاوز السن القانوني للوصاية، ولكن نَص الوصية كان يُلزمُني أن أظلَّ تحت وصاية هذا الرجل لحين أتزوج، ولم يَكُن لي أي أقارب غيرهم.

كان هذا العم الذراع الأيمن لأبي في أعماله ،آنذاك لم أره إلا وهو يُعاملني وكأنني أميرة وسط مملكتي .

أما الآن، وقد توفى أبي أيضًا بعد رحيل أمي قَبْله بعدة سنوات ،سقطتُ أرضًا من مقعدي كأميرة، وتحوَّلتُ لفتاة بائسة تحت رعايته ، استولى على كل ما أمْلُك بشكل أناني وجشع ،تحت غطاء الوصية، وحتى يضمن عدم ترك هذه الرفاهية التي أصبح يشاهدها بكل شيء حوله ، أتمّ خُطبتي إجبارًا لابنه الأكبر .

رفضتُ ،عارضتُ ، هتفُت ،صرخُت ، لم يَكْتَرث بي أحد .

وعندما أجابني، صفعني على وجهي بتهديدٍ أخافني كثيرًا.

هل يمكن في يوم ما ، أُطْرد من هذا المنزل ؟ !

منزل نشأتي وذكريات أبي وأُمي، تملأ الأرجاء حولي ، أُضَحِي بأي شيء إلا هذا المنزل ، سايرتُ الأمور حتى أضع حلاً لهذه المأساة التي أُعانيها بشكل لا يُلفت انتباههم، ولخوْفي أن هذا الرجل وأسرته من الممكن أنْ يفعلوا بي أي شيء؛ ليصلوا إلى غايتهم ، ضعف نفسي أذلني أمامهم بمنتهى المَهانة.

وتمت خطبتي لخالد ابنهم الأكبر، الذي كان أكثر من والده دناءة وخِسة، كنتُ لا أتخيله زوجًا لي ولو ليومٍ واحدٍ .

الشيء الوحيد الذي كان إيجابيًا،هو شهادتي وعملي في إحدى المستشفيات الكبرى كممرضة، أحببتُ هذه المِهنة ،وكأن اختياري لها يُجيبني على سؤال سألته لنفسي مرارًا، متى سأُشْفَى من هذا الضعف ؟ متى سأصنع جسورًا صلبة في دَرْبِي لأخطو عليها ،وأحتمي من انكسارات الطريق ؟

عرض عليّ أبي قبل وفاته أن أعمل معه ،ولكنّي رفضتُ، عشقتُ فكرة بناء الذات بمفردي ، بعيدًا عن مساعدة من حولي.

استمرت الخطبة لعدة أشهر، لم تزدني إلا كرهًا ونفورًا من هذا الخالد ووالده وأُسرته بأكملها، وبالمصادفة اكشفتُ كَم العلاقات النسائية المشبوهة لكل منهم وآخرهم كانت مع صديقة طفولتي وجارتي أيضًا، أُصِبْتُ بصدمة خيانتها لي، قررتُ فَسْخ الخطوبة ،وأصررتُ على ذلك باستماته ، ولأول مرة أثور عليهم وأخلع عني رداء الصمت المُهين الذى أخضعني لهذه الحياة اليائسة والتعيسة تحت التهديد ، لأول مرة أشعر ببراكين التمرد تقودني لحَسْم هذه المهزلة، وبعد جدال استمر لعدة

أيام ، ومع إصراري الغاضب وتهديدي بمقاضاتهم جميعاً ،رضخوا لقراري.

رد راكان بقوة وإعجاب وتأثر:

رائع ، هيَّا يا فتاة ، تشجعي أكثر.

أكمل وهو مندمج بِالقراءة:

كنتُ فتاة في السادسة والعشرين ولكن كنتُ طفلة القلب ،حسنة النوايا ؛ لهذا جعلني أبي تحت وصاية هذا الرجل؟ !

لم استوعب ما يدبروه ضدي، اتفقتُ معهم وأصررتُ أنهم ينتقلون لمنزل آخر ويتركون لي منزلي ، سايَرْني العم في حديثي حتى فاض ما بداخلي بانفعال ووافق !!!! وافقني وترك المنزل ومعه أسرته بأكملها.

وأخيرًا ،تَهَشَّمَت قيودي الصلبة التي أوصدوها حولي ،قفزتُ من الفرحة كالطفلة التي أُهْدِيت للتو حقيبة كبيرة من الألعاب المحببة لها ، التف شعري الطويل المصبوغ باللون العسلي الذي ماثل لون عيني حول رقبتي وأنا أتمايل بسعادة لم أكن أتوقعها ، وباعدتُ خُصْلة متمردة التصقت بفمي كالسهم داخل القلب ، ولكن دائمًا الغد يخبئ لنا أشياء متسلحة بقوة المجهول ،تعكس كل التوقعات.

******

رفع رأسه وهو يضع فنجان قهوته الفارغ على الطاولة.

أمَعَن النظر أمامه بشرود وهو يفكر ويتخيلها كما وصفت نفسها، ابتسم بنظرة إعجاب ، وقال:

- بدأت أتخيلك، صِفي أكثر ،حتى يكتمل وجهكِ بخيالي سُكنان.

قام إلى الشرفة واستنشق بعض الهواء ،وبيده المذكرات ،توقَّع أن يدفعوا بطريقها المضايقات كالذي يُلقي كسر الزجاج في طريق السير .

وتابع قراءة.

مرت الأيام وبدأ سيْر هذه السعادة في الانحدار ، اشتقتُ إلى صديقتي الوحيدة الخائنة وكأنني أضغط بتلذذ على جُرحي، ولم أُعاتبها حتى تركتُها إلى تداول الأيام ، التمستُ لها العذر؛ لأنها أحبتهُ ،ولكنّي لم أحبه أبدًا ،وكانت تعلم ذلك، وتتابعت أيامي بيوم مكرر ، أيام مسروق منها روح الحياة ،أذهب إلى عملي يوميًا وأبدأ بروتين كل يوم ،كسائر الأيام، تتعقبني بضراوة؛ لتُريني نصف وجهها المعتاد .

بدأتُ ألاحظ نظرات من حولي من الجيران بشكل مُلفت ، نظرات تَنْهشني، لم أُبالي في بادئ الأمر ‘ولكن بدأت أنزعج بحق مع الوقت، فالنظرات زادت بالهمسات واللمزات الخفية ، ماذا يحدث ؟ !لا أعلم.

دق بداخلي جرس الإنذار لشيء صادم آت.

في بعض الأوقات كنتُ أمضي باليومين في عملي بسبب الحالات الطارئة ؛ لأعود إلى منزلي، وتتزايد الهمسات حولي يومًا بعد يوم ، حتى اعترضَ أحد الشباب طريقي ذات يوم، ويبدو أنه في حالة سُكر ، وعيناه تتجولان على جسدي بجرأة ، كان هذا في هاجرة النهار وعلى

مَرْأَى الجميع ، هتفتُ به بصراخ وأنا أنْعَته حتى يبتعد عني، ولكن ما قاله جعلني أتجمد مكاني، لم أستطع التصديق ، من أين أتى بهذه الافتراءات ؟

هل أصبحتُ في أعين من حولي فتاةً مُنحلة ، كيف ؟ !ولماذا؟ !!!!!!

أردتُ أن أبكي ،ولكنْ أخمدت هذه الدموع بداخلي كشمس تاهت خلف الغيوم ،ستُضعفني وأنا أحتاج لكل ومْضة ثائرة بي، استطردتُ بالقول وأنا أدافع عن نفسي وأطلب ثبوت حديثهم.

أيْقَنتُ اليوم أنني في عالم يُطْلق الأحكام قبل أن يفكر ، ونسوا قول الله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ..) صدق الله العظيم

أطلق قلبي أنينًا يلومُني ، أتذكر قول الله الآن ،وأنا مقصرة كل التقصير في حقه ،فجميعنا مقصرون!

بدأ فحيح الانتقام يتسرب داخل ثَغَرات روحي ، ثَغَرات بُنيت من ضعفي وانهزام الصَّد الرادع لانكساري بيد البشر ، وبُعدي عن العبادات .

كنتُ حسنة الخُلق نعم ، ولكن هل أصلي ؟ !هل مظهري وتَبَرُّجِي سيثبت دفاعي الصادق ؟

بعد الله تعالى ،أنا فقط مَن أراني من الداخل ، أرى تقرّبي وبُعدي كحال البشر أجمع ولكن أن يُسِيئوا الظن بي فهذا ظلمٌ مفترى .

بدأ تجمع الناس يقلقني ، وبدأت أشعر وكأن هذا الشِّجار مُختلق، لمحتُ صديقتي الخائنة من بعيد تأتي وعلى وجهها الغضب.

ابتسمتُ بداخلي رغم ضيقي مما فعلتْه معي ، لم أضع احتمالًا آخر غير أنها ركضت لمساعدتي ، الآن لم أصدق مدى سذاجتي آنذاك !!

استاء راكان من طيبة سُكنان ، وقال وهو يتنهد بضيق:

- كيف وهي خانتك مسبقًا، أين عقلك يا فتاة ؟

اشتاق لفنجان قهوة آخر ، نهض وأحضره سريعًا، ثم أتى مرة أخرى

وتابع وهو يرْتَشف قهوته:.

(ستأتي النفس وستقف أمام ربها يومًا ، فَتَلْفظ بما تريده أن يسُرك في هذا الوقت ، ولا تنس الظلم ظلمات يوم القيامة ؛فاجتنبوا).

الفصل الثالث

"قيد الضعف"

وقفتْ أمامي وقذفتني بأبشع الاتهامات وأنها قطعتْ علاقتها بي بسبب سلوكي المُشين ، صِدقًا لم أستطع التفوُّه بحرفٍ ،الصدمة أَلَجَمَتْني برباطٍ مُوصَد ، سمعتُ صوت الرعد المخيف وهو يصرخ بداخلي ،هطلت من عينيي دموعًا مندفعة بقوةٍ من أعماقي ، أحدق بها بذهول ،بالكاد التفتُّ حولي؛ لأرى هل هذا الحديث موجّه لي !! حتى أتأكد!

كررتْ ما قالته بعنف وهي تصرخ بوجهي ، ماذا فعلتُ لها؟ ليرقد هذا الحقد الكائن الذي أراه بعينيها الآن ، ومع الأسف صدمتي التي أعقبها صمتي أكدت شكوكهم ، بدون إثبات ،بدون أن يروا بأعينهم ، صدقوها.

بالكاد نطقتُ وأنا كالغريق الذي يرفع يده للنجدة قبل أن يسقُطَ في الأعماق ،ودافعتُ عن نفسي ولكنْ سوء الظن كان رسَّخ قواعده بداخل عقولهم ، النظرات حولي تَصْفَعَني بشراسة، لم يصدقوني كما صدقوها، فكلانا يتحدث!

تأكدتُ بمرارة أنَّ لا طائل من وقوفي أكثر ، حتى وإن وقفتُ لسَّنةٍ آتية ، فالأمر انتهى...

أسرعتُ إلى منزلي وكدتُ أن أتعثَّر مرارًا في طريقي ، بكيتُ كثيرًا بحسرة، وأعقب ذلك أيامًا كئيبة أخذتُ بها عطلةً ؛ حتى أعود وأتماسك،

انتهت العُطلة التي لم تفدني كثيرًا فحالتي ازدادت سوءًا وأنا بمفردي، وعُدتُ إلى العمل بوجه ازداد

شحوبه ؛لأفاجأ بنفس النظرات الهامسة ، وعاد الموقف يتكرر مع إحدى زميلاتي الممرضات ،اندفع الجميع على صوتها التي تعمدت عُلوه ،وأنا تائهة ،ماذا فعلتُ

لكل هذا! ؟

تهكَّم وجه راكان، وهتف بغضب.

-هذه خطة مدبرة عليكِ ، تماسكي ولا تضعفي هكذا، أكره هذا الضعف يا سُكنان، ثم تتبع سَيْر القراءة من جديد بانفعال.

أُكذِّب ما تقوله زميلتي بعصبية ، ونفس النظرات المُتَهِمَة التي شاهدتها منذ يومين ،شاهدتها الآن ، صرخت بهم:

- صدقوني إنني لم أعرف رجلاً طوال حياتي، حتى مَن تمت خِطبتي عليه ، لم أجلس معه إلا قليلاً ولم أكُن أريده، صدقوني.

ولكن أكاذيبها المُحْكَمة أطلقت العَنَان لمخيلتهم السيئة ، حتى وإن وجد أحدهم لم يصدق ما تقوله زميلتي ،فإنني لم أجد من يدعمني ،كلهم صامتون، يستمعون يشاهدون في سكون فقط.

كانت بقايا قوتي تدفعني للمواجهة والإصرار ،إنني صادقة ، بشيء مريب كانت نسجت هذه الإشاعات خيوطها حول رقبتي بإحكام، ولم تترك لي مساحة للتنفس

وبدأت كَوْمة الانتقام تزداد اشتعالاً بداخلي عندما أمرني مدير المستشفى أن أقدم استقالتي بسبب ما يدور حولي من أحاديث.

أقسمتُ له ولكنّه لم يشأ أن يستمع لشيء ، وجملته الأخيرة كانت:

- حتى وإن كنت صادقة فالأحاديث حولك كثيرة وهذا سيسيء لسمعة المستشفى.

تركتُ العمل ،وكبريائي رفع رأسي ،وودَّعْتُ المكان بنظرات دامعة.

وفي طريق العودة، فوجئت بآخر شخص كنت أريد أن أراه والآن بالأخص خالد خطيبي السابق ، ضحك ضحكةً شيطانية ،وأخبرني وهو يَعْترف بتصريح وقح أنه السبب وراء كل هذا ، بالاتفاق مع زميلتي، وصديقتي وكل منهما باعني.

زميلتي بالمال، وصديقتي بوعد الزواج ،قال هذا صراحةً.

لم أكره أحدًا من قبل ، ولكنني أكره هذا الواقف أمامي، متأملاً فيّ بنظرات شامتة منتصرِة ، هددني إن لم أفعل ما يريده، سيفعل أكثر من ذلك، اعترضتُ بغضب وصفعته على وجهه بقوة وأنا أصرخ بوجهه غاضبة.

صرّ راكان على أسنانه بقوة وعصبية ، ثم زفر بحدة وهو يهتف:

- الوغد ،كنتُ أشك بِذلك ، أحسنت بصفعه.

وتنهد ثم أضاف :

من السهل أن يطلق الناس حكمًا على شخص بدون التأكد، ومع الأسف يصعب عليهم التصديق، إن حاول أن يُثبت هذا الشخص براءته ، تفكير مرضي أصاب الكثيرين حولنا .

حَمْلَق بالدفتر مليًّا وتابع:

- ليْتني كنتُ معكِ ، ليْتني كنتُ أقف بالصدفة وأنتِ تصفعينه، أو كنت مدير المستشفى

الذي لم يفكر بكِ كفتاة وحيدة، تستحق الدَّعم حتى وإن كانت مُخْطِئة ، ليتني كنت بين هؤلاء الصامتين.

مر وقت طويل على راكان وهو يقرأ مذكرات سُكنان حتى أنه نسي ميعاد الغداء وقد أتى المساء ، وقف عند هذا الحد وتثاءب ، قفل دفتر المذكرات وقال بابتسامة بسيطة.

- ألقاكِ في الغد سُكنان، عمت مساءً.

ترك الدفتر على الطاولة بعد أن أغلقه بلطف ،وتثاءب مرةً أخرى وهو يذهب إلى غرفته.

******

أشرق صباح اليوم التالي، ليسقط على زجاج الشرفة برقة عاشق، يركض إلى حبيبته الغائبة.

استيقظ راكان صباحًا ، وركض لدقائق على الشاطئ ؛ليستعيد حيويته، وقرر وضع خطة للتنزه يوميًا.

عاد إلى المنزل بطاقة متجددة ، تناول فطوره بسرعة ،ثم اتجه إلى مَرْسَمه.

مضت عدة ساعات وهو يرسم بشكل عشوائي بدفتر صغير خاص به، ولم يتوصّل إلى فكرة تستطيع أن تبهره.

زفر بضيق ،وللحظات أحسَّ بالفشل ،برغم شهرته ونجاحه ،لكنْ هذه اللوحة الأخيرة ستقوده للجنون.

نهض ليجهز لنفسه فنجان قهوة، وعاد وقد وقع نظره على دفتر المذكرات مجددًا.

ابتسم وقال:

- لا بأس ،قليلاً من القراءة سيُفيد.

أخذ الدفتر وفتحه حيث توقف بالأمس؛ ليتابع

صفعتي كانت كلدغ السِّياط على ظهر الجياد، تَصْعِق؛ تَهَكَّم وجهه بشرٍ دفين وهو ينظر بنظرة متوعدة لما هو آت ، استقبلتُ نظرته برجْفة متوجسة فأنا أعرف أي أحمق هو، والدليل ما أنا وصلت إليه الآن ، ولكن أن أرضخ لأمره فهذا خارج نطاق المعقول تركته وذهبت ،ولكنّه لم يتركني.

ما حدث بعد ذلك كان أبشع مما قاله كتهديد ووعيد.

بعد أن تركتُ عملي، بحثتُ عن عمل آخر، وللغرابة قُبِلت أوراقي للتوظيف لأكتشف في اليوم التالي الرفض!!

فار الشك بداخلي حتى بدأتُ أتأكد، قطعًا هو يُحاربني بميراث قوتي ومالي، يا للوقاحة!!!

لم أجد حلاً لهذه المسألة، إلا أن أعمل في مصنع أبي، رغم حبي الشديد للتمريض ولكن أين السُبل ؟ !

ذهبتُ إلى العمل في المصنع؛ لتقابلني صدمتهم بوجهي ،وكنت كمَن يصُبّ الزيت على النار؛ لأفاجأ بعد ذلك في صباح أحد الأيام التالية بإشعار من مخفر الشرطة باتهام كاذب ،يخص مضايقتي لأحد الجيران، بشكل أثار حفيظتهم واتهموني بالجنون، والمطالبة بالكشف الطبي النفسي .

وما مِن عجب لو ذكرتُ أن الجيران كانوا أحد أفراد عائلة صديقتي الخائنة ، يبدو أن الأمر مُخطط ،ومُرتب له بإحكام، وهذا ما أكدته لي تصرفات الضابط المُهينة غير المفهومة معي.

حملاً كبيرًا أثقل عقلي بالهموم من كثرة الأسئلة.

لمَ كل هذا الافتراء ؟ أ مِن أجل المال فقط ؟ !!!

أتى المحامي الخاص بأبي الراحل وأنهى هذه المسألة القانونية،

وعدتُ إلى منزلي، ولم يكن لدي استعداد؛ كي أعود للعمل ثانية ،وأشعل حقدهم مرة أخرى ،فالتوقعات السيئة الآن أبوابها مفتوحة.

ولكنَّ الصاعقة الكبرى التي ألجمتني وجعلتني كالفُتات، حضور نفس الضابط بعد عدة أيام ومعه قوة لفريق طبي مكون من ثلاث ممرضات ذوات أحجام مديدة ، وأحكموا الدائرة حولي وأخذوني عُنوة من قُعر

منزلي ولم يبال أحد بأي اعتراض صدر مني ،اكتشفت عند وصولي أنني أمام مبنى لأحد المستشفيات النفسية والعصبية !!!!!

وضع راكان فنجان قهوته بحدة على الطاولة ،وانتصب واقفًا وهو يُحْكم قبضته من الانفعال ،وهتف:

- بأي ذنب ؟ ما هذه الفوضى !!! هذا الضابط بالتأكيد مرتشي.

وتنهد بعمق وهو يخرج إلى شُرفة المَرْسَم ،وجلس على أحد المقاعد، وهو يخرج " سيجارة "من علبة " سجائره " وأشعلها بعصبية، وأكمل.

الفصل الرابع

"بداية ثورة النفس"

صرختُ بجنون ،لمَ أنا هُنا؟

وكأنني روح شفافة تصيح ولا أحد يراها.

بعد إجراء الكشف الطبي وتقديم التقرير، اعتقدتُ أنه حبل النجاة ، استلم الضابط التقرير وقرأ محتواه بشكل يوحي أنه كان يعرف مسبقًا ما يحتويه ، نصُّ التقرير على ثبوت أقوال الشهود بمحضر الشرطة الموجه ضدي ، وأنني غير سوية النفس بشكل خطر ، ويجب عدم تركي بمفردي ،وأن أكون تحت المراقبة المستمرة ،كان هذا آخر أمل؛ لنجدتي، ولكنه تمزقَ وأُذيب بمياه ضَحْلة.

مرت الأيام، وأنا أغفو تارة ؛ بسبب شدة الإرهاق و بسبب ثورتي الغاضبة والصراخ ،وتارة أخرى أغفو تحت تأثير المخدر، حُكم على حريتي بحكم الإعدام ،وكل هذا من أجل المال ! وأيضا حتى لا أستطيع أن أتنفس ،ولا أطلب أي شيء يخص ميراثي ، حتى شرط الوصية لم يعد متاحًا الآن ،فأي زواج من فتاة مجنونة، وقبل ذلك سيئة الخلق بنظر الجميع ؟!!

أي حياة هذه ؟ تمنيتُ الموت كثيرًا لأنجو.

كانت الشعلة الحارقة التي أحرقت آخر حصون قوتي النفسية، مجيء هذا الخالد عندي، بوجهه نظرات متشفية وضاحكة بسخرية ، نفث دخان سيجارته بوجهي حتى اختنقت بشدة ، وسعلتُ وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة، ضحك عاليًا بسخرية لرؤيتي هكذا ، فهو يعرف مسبقًا أنني أكره التدخين ولا أطيقه .

توقف راكان عن التدخين في هذه اللحظة ،وأطفأ عقب سيجارته في المطفأة بشكل سريع ولا إرادي، توترت نظرته ، لماذا استجاب هكذا؟!

اعترف لنفسه أنه كره التدخين في هذه اللحظة لمجرد كرهها له.

(خطوة نحو الحب)

تعجب من نفسه، وارتفع حاجبه بعدم فهم ، وابتسم ابتسامة خفيفة ، ولكن انْجَلت هذه الخاطرة لقلقه لِمَا فعله هذا الوغد الحقير بها.

ألقى نظرة على الورق مجددًا بقلق.

عاد هدوء أنفاسي رويدًا بعد السعال الشديد، وحساسيتي من الدخان.

وانتبهت لضحكته الساخرة وهو يقول :

- ألم تصدقيني من قبل؟ !! هل تصدقيني الآن ؟ سأجعلك تتمنين الموت في كل لحظة،

التزمتُ الصمت، وأنا أنظر أمامي كالتمثال، ولم أنطق .

أضاف بحقد :

ثروتك هذه ستبقى معي ، ولن أجعل لكِ طريقًا واحدًا لتأخذيها مني ، لا تريدي الزواج مني، فليكن ما تريدين ،ولكن البديل الوحيد هو ما أنتِ عليه الآن ، وحسب القانون لا يجوز لفتاة مُخْتلة عقليًا أن تدير ثروة بحجم ثروتك ، وستظل بقبضتي حتى أنهيك هنا بالبطء .

حدَّق بها بنظرة شريرة ضيقة ،وهتف بقوة:

- المقابلة القادمة معكِ ستكون في مَرَاسِم دفنكِ سُكنان . إلى اللقاء المنتظر و القريب.

ذهب وصفق الباب خلفه بعنف ، اعتدلتُ في فراشي وبصْقتُ بقوة في الاتجاه الذي كان يقف فيه،أجهشت بالبكاء بقهر وأنا ارتعد من الخوْف،فالحقيقة أن مكوثي هنا أكثر من ذلك سيقتلني فعلا بالبطء،

نهضتُ مُسرعة ،وركضتُ إلى الباب وفتحته ،أريد أن أهرب من هنا، وفوجئت به وهو يقف بالخارج مع إحدى الممرضات التي تتابعني، أغلقت الباب مرة أُخرى بخفوت إلا فتحة بسيطة، راقبت مِنها المشهد، اتسعت حدقتي وأنا أراه يُخرج رزمة مال ويعطيها للممرضة بنظرات ماكرة، أغلقت الباب دون صوت ، وركضتُ إلى فراشي مجددًا وأنا أنتفض من الهَلَع والرعب ، ودثَّرْتُ نفسي بالغطاء الأبيض جيدًا ،أُريد أن أحتمي بأي شيء ، كتمت شهقاتي بيدي وأردتُ أن أصرخ، لولا توجْسي من وقوفه بالخارج ، انتشر الرعب في كامل جسدي وانتفضتُ بتشنج ، وأحسست بظلمة عظيمة أمام عيني لا تقبل التغير بلون آخر.

بلع راكان ريقة بصعوبة ، وأطبق جفنيه وكأنه يستجيب لشيء قوي بداخله أراد ضمها الآن بقوة؛ لتحتمي بين ذراعيه ،ولكن سوداوية الضمائر تفعل أكثر من ذلك ،لا عجب .

توترت نظرة عينيه وهو ينظر للدفتر، وقال بألم:

- لا تخافي صغيرتي ، تمسّكي بقارب الإيمان ، فالله دائمًا معنا وهو الحامي ، أ تضعفي سُكنان ؟،الجئي إليه ولن تضيعي أبدًا ، أرجوكِ.

وحتى لا يتملكه طاقة سلبية من هذه الأحداث التي تزداد سوءًا ،ولهذه الفتاة المسكينة قرر أن يأخذ قسطًا من الراحة.

نهض من مكانه واحتاج لبعض الانتعاش ، خرج من المنزل، وتوجَّه إلى مياه البحر ، وحتى وهو في عمق الماء ،لم تبتعد عن تفكيره ، واستمر يسبح لفترة طويلة حتى لذعته برودة المياه ، خرج وتوجَّه إلى غرفته، أبدل ملابسه بأخرى جافة، ثم هبط إلى المطبخ ؛ ليحضر بعض الأطعمة ، فقد مضى وقت الغداء كأمس.

مرّ النهار بشكل سريع، وبدأت أفكاره تأخذ مسارًا آخر غير الرسم الذي يعشقه منذ الصغر ، أثناء السباحة كان يضرب المياه بيده وكأن أمامه هذا الخالد ويلكمه على وجهه، ومرة أخرى يسبح بخفة وكأنه يراها ويرى عينيها أمامه، ويزيل دموعها بيده برقة ، بدأ يتشكل وجهها أمام ناظريه لم يرُوقه اتجاه منحنى أفكاره ، قرر أن يترك القراءة في هذه المذكرات ويذهب في رحلة صيد؛ ليأخذ قسطًا من الراحة الذهنية والفكرية .

وبالفعل أمضى اليومين التاليين في الصيد، ولكن أحسَّ باشتياق غريب يجتاحه ،وتعجَّب من نفسه ، أرجع هذا لفضوله.

مساءً خرج إلى الشرفة ومعه المذكرات وتابع:

استمر جسدي ينتفض بعد ما رأيته ،وشهقاتي كنتُ أكتمها بوسادتي وأنظر للأدوية وكأنها سُم ، أردتُ بقوة أن أعرف ما هو الاتفاق المدبر حولي ،ثم بدأت العزلة تثقب جسدي حتى امتزجت بداخلي شيئًا فشيئًا حتى أنني كنت أغلق الغرفة جيدًا وأنكمش على نفسي ، وبنيتُ حولي أسوارًا صلبُها كلمة: ابتعدوا.

رافضة أي استجابة لأي طبيب يأتي ، أتناول عقاقير الدواء بصعوبة ، عقاقير كالصفعات، محتواها يُنْهك جسدي كمثل آخر دقات القلب حياة، وبعد صراخ يعترك مع أنفاسي بقوة منهكة وبمعاناة ، أتناولها كي يتركوني.

كُنت أرمق ذوات الرداء الأبيض بسخط وأنا أتذكر أنني كُنتُ في يومٍ ما مثلهم ممرضة ، بعد كل ما مررت به ، انطفأ ضوء قوتي ، أشعر بثقل قلبي يخنقني، وعَثراته تُبيد قوتي بقسوة كقطرة ماء ضائعة من جوْف السماء، تسقط بِتِيه على الثَّرَى ،أو كلوْن ربيعي للزهور، وهاجر عندما مالت عليه أظلال الخريف.

فما تبقى لي إلا نَفْسًا ضائعة ،تلملم أشلاءها كي تحاربني، تركض خلفي وبيدها الأغلال لتقيدني ،ولا تترك لي فرصة للعودة من هذا الطريق الجائر ،هل ستستطيع؟

وكباقي الأيام الفائتة ،أخذتُ أدويتي المخدرة التي كانت تجعلني أنام طويلاً، وكأنها تسرقني للسكون، استيقظتُ عند المَغيب ، كانت الشمس تلوح من بعيد بوداع مؤقت تاركة خلفها ظِل بلون النيران المضطرمة كثورتي الغاضبة.

فتحت جفوني لتتسع تدريجيًا ،وتحملق في أرجاء الغرفة ،نهضتُ بجسد متجمد كالتمثال ،يابس كالصخر ،وارتفعت عيني إلى نافذة صغيرة بالغرفة ،اقتربتُ منها ، كنتُ أتحرك بشكل غريب ،وقفتُ أمامها، وحدقتُ بالخارج وكأنني أنوي على شيء، وتكرر هذا في اليوم التالي ، هذا اليوم لم أستطع نسيانه مهما حييت يوم إيقاظ النفس الأمارة بالسوء من بين أضْلعي ، ثارت ووقفت أمامي ،ألجمتني وأشارت لي بتحذير: انتظري فلتسمعي.

طيلة نهار هذا اليوم سكنني هدوء غريب، أثار استغراب الأطباء حولي، ولا أحد يعلم أنني في صلاة جنائزية على وحدة أنفاسي وسكون نفسي وتوازني، بدون علمي حتى ، صمتي كان ضائعًا ،ضياعًا منبعثًا من داخلي ،شقَّ جلدي وظهر على ثنايا وجهي بشحوب كالأموات ، كُنت كالمعصوبة العينين في طريق مليء بالأشواك والأشباح ،أسير وأنا أرتعد وأنزف؛ لأبحث وأرتمي في أحضان نفسي الضائعة.

ولكنّي لم أجد إلا أحضان المجهول مرحبة بي بحفاوة كحيوان يستدرج فريسته بقطعة لحم دامية ، قبل أن أنتقل إلى المرحلة التالية ، هذا دفاع عن نفسي ،إنني لستُ مذنبة ، هم مَن جعلوني كذلك.

إلى مَن يسمعُني ، أنا المعذبة ،ذات الوجهين ،تألمتُ كثيرًا حتى تَمَزَّقت شرايين قلبي ألمًا، حتى الصمت كان ضجيجًا صاخبًا بداخلي ولا أحد

يعلم أو يشعر حملتُ ذنبًا ليس ذنبي ولا اقترفتُه ، لم أجد أحدًا يدعمني، أو يمد يده لنجدتي ،جميعهم باركوا الأكاذيب ، وتردد صدى الأقاويل بدون رحمة ، مَن المذنب ؟

فلينتظروا إذاً.

****

(بداية الغَيْث قَطْرة. وبداية الانتقام ظلم)

الفصل الخامس

"انفصام في الشخصية"

عند المساء ، وقفتُ أمام نافذة غرفتي بشرود صامت ، وعيني أُغْلِقت بقوة ليست بإرادتي ، وكأنها تغلق النوافذ حتى لا أهرب .

صرخ قلبي بهَلَع:

- " لا ،لاااا ،لا يُعقل أن سُكنان الأخرى ظهرت "

أكيد إنني أُهَلْوِس بسبب العقاقير ؟ أم هذه صَحْوة الموت ؟ !

"يا وَيْلتي إنها هي"

هذا الحديث كان يدور بمكان بعيد ، كُنتُ خلف قضبان سوداء بداخلي، أضلاع القضبان من ضلُوعي، أصرخ ،أستغيث.. أريد حريتي .

هتفتُ بصراخ : أنتِ مَن يجب أن تكوني هُنا ؟ حرريني أرجوك.

وكررت الصرخة بذعر ،وتوسلتُ، ولكن صَمّت آذانها عني ،كيف أَوْقعتْني إلى هنا ؟!

كانت تراني من الخارج ،ولكن تجنبتني ،واستمرت تُحدق إلى الفراغ بالنافذة وأغمضت عينيها فجأة بقوة، وبعثت برسالة لي :

- اهدأي ،اهدأي ،لن أُؤذيك، ،بل خرجتُ لأنتقم ممن أذوك، وظلموك ،فليبدأ عذابهم إذاً كما عذبوني وعذبوك.

ناشدتها برجاء باكٍ:

- إنني لا أريد أن أؤذي أحدًا ،أرجوك .

تركتهم إلى الله ؛لينتقم لي.

جزّت سُكنان الأخرى على أسنانها وقالت بحدة وألم:

تذكَّرتِ الله الآن ! وأنت التي أبعدتيني عنه أمدًا طويلاً

تلومينني !! لا..... لا سُكنان

فأنت المُلامة الأولى ،تتذكرينه في الضراء فقط ،فالبُعد أنتِ من تخيرته يومًا

فلا تلومينني إذًا ..

خلف قضباني سقطتُ وأنا أجهش ببكاءٍ مرير تصبب منه الندمُ، أين أنا؟

بداخل نفسي أم أحاسب داخل قبري ؟

حساب النفس يطعنني، وأي نفسٍ! ، هي نفس قاست وقاسيت ،فقبل أن يظلمني أحد ظلمتُ نفسي ، عندها كل الحق في إيلامي، فحُجَتُها أقوى وأنا البادية.

بعد أن أفقتُ قليلاً من نوبة بكائي ،نهضتُ، وأطرقت على قضباني وهتفتُ بتوسل:

- أرجوك سُكنان ، حرريني، لا تعذبيني أكثر .

رسالتها كانت واضحة هذه المرة ،صرخت بي :

- كَفَى ،سيكون هذا آخر حديثنا الآن، ستفاجئين بما سأفعله كل صباح ،سأترك لك نور الصباح يخبرك أنني لستُ ضعيفة ، أما الليل فلي ،فلا تلومينني!.

سأتركك تتنفسين انتقامي بنور الشمس كل يوم .

وفُتح باب غرفتي فجأة:

ورأيت الممرضة التي رأيتها من قبل، تستلم ثمن موتي ،وهي تملأ إبرة طبية بدواء وكممرضة سابقاً استطعت أن أتعرف على هذا الدواء وما يفعله ، إنه فعلا الموت البطيء.

احتدت نظرات سُكنان الأخرى بعتمة الظلم، والقهر الذي كان كالنَّفْث في نارٍ خامدة وزادها النَّفْث اشتعالاً ملتهبًا ،حتى أصبحتُ بركانًا هائلاً، لم يستطع أحد إخماده الآن وأنتج سُكنان الأخرى تحت رعاية ضعفي وظلمهم.

كان هناك من خلف أحد دقات القلب الحزينة ، صوت ينادي بضعف كصوت وحش مجروح يئن ، ويجنن سكنان الأخرى ، يلتقط زخَّات إرادتي التي بعثرها الألم ،حتى استطاعت هي أن تكتمه بكوْمة مشتعلة،

دفعتها بشراسة لتحرق هذا الصوت بشيء من ألمي الذي مزقني على يد من ظلموني...

دَسَّت رأس الإبرة بجلدي ونظرة عينيّ تتسع؛ لتتقابل بعيني الممرضة بتوعد، وهي تبتسم باستهزاء ،معتقدة أنني مستسلمة للأمر ،ولكن ما لم يكن في توقعات أي شخص أن سُكنان الأخرى ،هي من كانت تنظر بشر وتوعد هكذا ، وليس أنا سُكنان القلب .

رجع راكان بظهره للخلف وهو يتنهد تنهيدة طويلة ،وسرَّح شعره الغزير بأصابع يده وهو يتأمل دفترها ؛تقلصت عضلات فمه ، وقال بنبرة يغمرها الألم لهذه الفتاة التي اعتبرها رغم ذلك شجاعة:

- ربّاه ؛ ما هذا الألم ؟ !تعذبت كثيرًا بل هذا القهر بعينه.

برز الانزعاج على محياه وهو يتخيل معاناتها ، نفسه الهادئة احتجت بألم لفتاة بات القلب يعرفها ، وهمست بداخله تقول :

- لو أن كل فردٍ تذو ق حديثه قبل أن يقوله ، لو أننا وضعنا أنفسنا في مؤضع الآخرين لو تقبلنا وحمدنا الله على رزق أيدينا ، ولم ننظر ونحقد على ما في أيدي

غيرنا ، لكنَّا أفضل وأنقى وأصفى نفَسا،ولم نولدُ بأيدينا مستنسخات ضالة من أنفسنا الضعيفة، تحاربنا نحن ،وما أكبرُ من حرب الإنسان مع نفسه ، ضجيجُها ألم وضحاياها مشاعرنا الصافية والرابح هي شخصيةٌ أخرى تُولد لكي تنتقم.

احتاج لركعتين حمدًا لله على نفسه الراضية ،داعيًا فيها:

- اللهمَّ يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك .

دعاء مريح للثبات على عماد الدين والثبات الاتزاني للقلب الذى لا ينحني إلا لربه حمدًا لله.... أُحبك يا الله.... اللهمَّ حبك ، فإني أُحبك أكثر من الحب حبًا، فلتشهد يا خالقي حتى عند عصياني يغرقني قلبي المُحب في بئر الحرمان؛ ليذيقني مرارة بُعدك ،لأعود وأنا مشتاق بحبٍ يغرق الأعماق ،ويَسْرِي في الوريد ،لأولد من جديد اللهم حبك.

أنهى صلاته ونهض وهو دامع العينين ، بعد هذا الصفاء النفسي الذي غمره، لم يرغب أن يُزيحه بإكمال القراءة ،وهو متوقع الآتي ،أضاف بوعد:

- فليكن غدًا موعدنا ،سُكنان .

******

أشرق نور الصباح بشيء من الاشتياق دبَّ في قلب راكان لفتاة الورق المجهولة ، بعد فترة سباحة وتناول وجبة الإفطار بعدها ، أتت برأسه إحدى الأفكار ،أخذ دفتره وبدأ يرسم بشكل عشوائي ، أعجبته فكرة ما ولكن ليس لحد الإبهار والحماس في البدء ، ترك الدفتر ليأخذ مذكراتها مرة أخرى .

وقال بابتسامة:

- صباح الخير سُكنان ،كيف حالك؟ لا بأس سأعلم حالاً.

وبدأ بالقراءة حيث انتهى بالأمس.

في اليوم التالي

استيقظت بعيون ذابلة ،لأطفو بضعفي ، كانت ذاكرتي مُشَوشة وكأنَّ ما حدث بمساء أمس كابوس أو هلوسة حاولت التذكُّر، ولكنّي لم أتذكر شيئًا من بعد اختفاء قرص الشمس وراء الغيوم.

ولكن لماذا يجتاحني هذا الحزن القاتل ؟!

شككت بهذا الأمر ، ووضعت يدي على أذني رافضة أي أفكار، مندفعة برأسي لتزيد هذه الحيرة والتِّيه ، تركتني هي للحيرة ؛لأقع بين الحقيقة والحلم ، تواجهني نفسي عندما تخرج ،وعندما تختفي، تتشبث بي الأوهام وأنا في عمقها ضائعة.

مضى اليوم ليأتي المساء مجددًا وتظهر هي .

ولكن هذا المساء لم تحدثني كالأمس ،بل جعلت بيننا حاجزًا ، وأغلقتْ كل بادرة ضوء تضيء لي الطريق؛ لأعلم بماذا أمُر فعليًا وماذا ستفعله هي.

أغلقتْ كل النوافذ ؛لتبدأ طريقها.

كان يُزَين إصبعي خاتم من الألماس قد أهداه أبي الراحل لي ذات يوم ، واحتفظتُ به بإصبعي حتى بات لا يفارقني ؛ استخدمته لأرشو إحدى الممرضات ضعاف النفوس به ؛ حتى تساعدني في التسلل ليلاً دون أن يكتشف أحد حقيقة الأمر؛ لأستيقظ في اليوم التالي ، وأكتشف عدم وجود الخاتم بيدي ، وأثور عليهم معتقدة أنهم سرقوه من يدي في إحدى غَفَواتي .

نظرتْ لي الممرضة المُتَفَق معها والذي يمتد عملها من الليل حتى الصباح بنظرات غريبة ومريبة جعلتني أتَوَجْس منها ، واحْتَدت نظرتها لتأمرني بالصمت؛ليسير الوقت بعد ذلك بشكل بطيء، ومخيف حتى جاء موعدها الليلي لتخرج.

أتت هذه الممرضة لتلومُني على ما فعلته صباحًا ، لتلتقي هي بتهديد شيطاني مني ، بِحِسْبة بسيطة علمتُ أن الممرضة ستعرض الخاتم للبيع، أو ربما عرضته بالفعل وهذا ما تأكدت منه بطريقة ملتوية أثناء الحديث معها، هددتها إن توقفت عن مساعدتي لطلب المزيد من المال ، سأطلب تدخل الشرطة وأعطي لهم مواصفات الخاتم ؛ ليبحثوا عنه وبمتابعة سيْر السرقة ، سيصلون له بالتأكيد ، وكانت الممرضة ساذجة لدرجة أنها صدقت ما أقوله بخوف ، ولم تفكر أنه في حالتي هذه ،لم يؤخذ بكلامي، ولكن فِعْل الخطأ يترك الرعب والتَّرقُب في النفوس من أي حدث ولو بسيط ، وافقتْ بخوْف على أن تمتثل لكل ما أقوله دون اعتراض وبعينيها نظرات ندم وحقد تجاهي .

المضحك في الأمر أنني كنت مثل سندريلا ، ولكن سندريلا الشريرة، والساحرة التي ساعدتني هي الممرضة الشريرة أيضًا، وألزمتني بالمجيء قبل الشروق .

ابتسم راكان ابتسامة واسعة وهو يُومِئ برأسه بموافقة، وقال : لم أتعجب سُكنان من هذا الوصف ، فهذا ما كنتُ أشعر به حقًا أنتِ سندريلا أحسُّ بشيء غريب في هذا الوقت ، هذا الوصف وضعه أمام شيء لطالما ابتعد عنه لمَ شعر أنه الأمير ؟؟ !!

نَفَضَّ هذه الخاطرة من رأسه وتابع.

****

(لأصحاب النفوس القوية بالإيمان سيكون التصرف والحل الأمثل هو: اسْجُد واقْتَرِب)

الفصل السادس

"سندريلا الانتقام"

دقَّ عقارب الساعة يُثير ضجيجًا مؤلمًا بداخلي ، تنعكس ظلمته أمام ناظري ، لم أرتعد خوفًا هكذا كما ارتعبتُ من نفسي، وأرعبني انهزامي وانعدام قوتي أمامها بوحشية ، تتسارع خفقات القلب التائهة ؛ لينتقل غضبها عبر تصارع قرع النبض الطارق على جدران القلب ، ويناشد ضياء النهار ، حتى يظل موجودًا ، حتى لا تعود هي.

وبدأت حفلة سندريلا الانتقام

غابت الشمس وتوارت بالحجاب؛ لترتفع مخالب نفسي مُتَكِئَة على قلبي بقسوة وأوثقت عقلي بداخل بئرٍ من الحيرة والتِّيه ، فلا فوت الآن.

اختارت سكنان النفس المعذبة المساء؛ لأنه يشبهُها في ظُلمته وغموضه، أما أنا وقلبي فأبين عن الخفاء ، ولكن في الحقيقة حالتي هي مَن ألزمتني وألجمتني؛ لأن سُكنان الأخرى تخاف من الشروق ،تخاف من ضيائه ونوره ، وكأنه سيُعري حقيقتها.

كان آخر وقت لي في الظهور قبل الشروق، وإلا ستظهر سُكنان القلب بالخارج ، ولا أدري ماذا كنت سأفعل في هذا الوقت؟

سندريلا كانت تخرج متخفية؛ لتلتقي بعاشقها، أما سندريلا الانتقام تخرج الآن لتنتقم.

خرجتُ بذلك الوجه الشرس، وتتراقص أمام عيني وجوههم كالأشباح ،ذات لون قاتم كغرابيب سود، وجوه لأربعة أشخاص ، لن أترك فيهم شخصًا بدون أن أُذِيقه نار الألم كما أذاقني ، هؤلاء المُرجِفُون

وهم : خالد ووالده ،وصديقتي وزميلتي في المستشفى.

أول مكان ذهبتُ إليه هو منزلي ، وللحظ لم أجد أحدًا ممن أعرفهم نظرًا لتأخر الوقت ،دخلت إلى حديقة المنزل بعد ما قفزت من على إحدى الأسوار ومنها إلى باب جانبي، كنت أعلم أنه غير محكم الغلق؛ لأنه بدون قُفل، هذا الباب يصل إلى المطبخ بالطابق الأرضي ، دخلت المنزل، ولم أنظر لشيء حولي غير آثار فوضى اليوم الذي أتوا ليأخذوني فيه إلى المصحة ، يتطاير الشَّرر من عيني وزادني اندفاعًا لِمَا أقدم عليه ، وطَوَقَني بألم ، وبعد ذلك تجنبت النظر لأي شيء، وشعرت وكأن عيون الماضي والذكريات تلومُني ،عيون طفولتي المترامية هنا وهناك ،أخذتُ بعض المال من خزانتي الخاصة، وبحثت عن مفاتيح المنزل، ووجدتها بعد دقائق من البحث ، ثم ذهبت في الطريق كنت كما الجثة الهامدة ،مقلتي لا تتحرك إنْشًا واحدًا ، نظرة مُصَوبة للأمام بتوعد مجهول الهوية ، تحدثتْ سكنان المعذبة الآن بصمت، كأنها تبارك أولى خطواتها:

- كالشمس والقمر نحن سُكنان ، قابعان في جسد السماء ، من المستحيل أن يلتقيا في

نفس اللحظة ، تغرب الشمس؛ ليتسلل الضوء القمري بضحكة متحدية بأن وسط هذه العَتْمة سيضيء ويثبت قدرته وقوته ،أما أنتِ تحرقين نفسك كأشعة الشمس لأغصان

البساتين وماذا حصدتِ ؟

شوكًا أدماك ،جعلك ترتشفين ظلمهم بابتسامة مغتصبة.

دخلتُ إحدى المحلات التجارية، وابتعت رداءً أسود ،أخفى حتى وجهي

وبدأتْ اللُعبة

جسدٌ يتحرك بداخله نَفْسًا مثقلة بالانتقام ، ولا يَحِيق بها إلا قطرات الألم والقهر الذي يمتزج مع الريق بمرارة كمذاق أكل الخَمْطِ الحامض.

أسرعتُ إلى منزل أكثرهم ظلماً لي – خالد - راقبته من بعيدٍ، نظرات ساهمة لو أنها تقتل، لكان قُتل في الحال.

حتى استطعت بعد عدة أيام اكتشاف بدء صفقة مشبوهة، يقوم بها بشكل خارج عن القانون ، من خلال مراقبتي.

في هذه الأيام كنت أعود ليلاً إلى المستشفى بخفاء ؛لأستيقظ بَصيْحة الذاكرة المشوشة التي لم تساعدني علي إيجاد الطريق الذي يوصلني على مفترق طرق نفسي حتى أقف وأعترض..

في إحدى الأمسيات وأنا بالخارج بوجهي الشرس ، رأيته مُسرعًا إلى سيارته كطيف الريح ،وبيده حقيبة قابض عليها بقوة ، تركها بالسيارة، ثم أسرع للداخل مجدداً وكأنه يتسابق مع شيطانه ، انتظرت لحظات، واقتربتُ من السيارة ولكن أبوابها مغلقة، تسارعت أنفاسي بشراسة وأخذت حجارة كبيرة ودفعتها على زجاج الباب حتى تهشم وتناثر حولي، مددت يدي أطال مكان الحقيبة حتى أخذتها ولم أشعر أن بعض الزجاج بنافذة باب السيارة أصابني بجُرحٍ بسيط بمعصم يدي ، ركضتُ بعيدًا، وتتعالى ضحكة النفس المنتقمة ، حتى أنني لم أشعر بصيحة السماء التي قذفت حبيبات الماء وكأنها تريد أن تُوقْظني من غفلتي .

اكتشفتُ أنَّ الأوراق بها المطلوب وأكثر ، رفعتُ رأسي بضحكة عالية بزاوية قائمة مع نظرتي للسماء النازفة بالمطر ،ولكن الأمر الصادم في إحدى الأوراق، اكتشفتُ ورقة باسم صديقتي لكشف طبي يُظْهر حملها، تعالى رنين سعادتي أكثر ،وأردتُ أن أترك أمرها استثنائيًا ،سيكون النهاية ، فاكهة نهاية الانتقام ، أخفيت هذه الحقيبة لخُطة أُدَبرها كل مساء ،لأعود صباحًا بجسدٍ مُنهكٍ لغوبٍ ، ولا أدري ماذا يحدث ؟ !!

كل ما استطاعتْ هي إيصاله لي، أنها تمردت ،وقطعْت الاتصال معي بعد ذلك .

فكَّر راكان في تيهانها، ومدى هذا العذاب الذي تقطن به ،ولكنه لم يشعر

بالإشفاق ، بل أحسَّ بأن هذا الصواب وجزاء الظالم ، ولكن ما يؤلمه من أجلها هو هذا الخواء النفسي.

وقال بهمس:

- اثأري لحقك يا فتاة ،ولكن بأيدي العدل.

توالت عليه الأيام وهو يقرأ تسللها الليلي كل سهرة مساء ، حتى أتت ساعة البدء.

استيقظ مبكرًا بالرغم أنه سهر مع مذكراتها لوقت متأخر ، ولكن لم يستطع التوقف عن التفكير ، ماذا حدث بعد ذلك ؟

كل جزئية يقرؤها تُجْبره على ملاحقة ما بعدها بلهفة، أخذ دفتر المذكرات الذي أصبح يضعه بجانبه في الفراش، وأحيانًا ينام ويسقط الدفتر على صدره مُؤْنِسًا دقات قلبه ،وأكمل قراءة:

عدت إلى المستشفى بوجه يضج بهجة، وطلبت من ساحرتي - الممرضة - أن تأتني بجريدة الغد في الصباح الباكر قبل أن تنصرف من دوام العمل، ووافقت بالطبع ،حتى أتى الصباح ؛لتدخل الممرضة وبيدها الجريدة ، ولم تعطني فرصة للسؤال ،وكان هذا بناءً على تعليمات سكنان الليل ، لأُفَاجأ بالقبض على خالد ووالده بأكثر من تهمة، صِدقًا شعرتُ بالسعادة ، ولكن يأتيني صَخبٌ غريب بداخلي يتراقص ويهتف:

- لقد فعلتُها.

لتتهاوى بي رياح الحيرة، وقد بدأت أشك بشيء غامض خلف الأسوار:

هل أنا من أفعل ذلك ؟ كيف ولم أشعر ؟ كيف ولم أتذكَّر شيئًا ؟ !!!حتى شعرت بجرح في يدي ، تصاعد القلق بداخلي وأنا أحاول التذكر ،متى جُرحت يدي هكذا ؟ وكيف ؟!

ليأتي المساء وتتمايل سُكنان الليل سعادةً، وتُقْسم على مُجاراة انتقامها، ولتأتي الخطوة الثانية.

****

(لا تُجَرِب أُن تُذيق قلبًا الألم ؛ستكون الخاسر في النهاية ،فبعض القلوب تأخذ دروبًا عاصفة)

الفصل السابع

"آخر خيوط الانتقام"

وقفت أمام انعكاس ظلها على زجاج النافذة ؛ لترى ظِلاً جديدًا ،ظِلاً لا يَحِيد عن هدفه في هزيمة أوجه الظلم الغادرة ، ونظرت بتوعد ، بأثقال مؤلمة رعدية وثاقبة، بضياء شرس تطل من عينيها ، الآن و قد بدأ سيل الانتقام ينزف ؛فيحق لي الاحتفال ،ولكن احتفال من نوع خاص، احتفال يعني تحطيم هذا الوجه المتبقي ،فليأت الآن دور زميلتي هنيئًا لها بما سأفعل ،ارتدت سندريلا الانتقام رداءها الأسود ،ثم خرجت كعادتها بتسلل.

أحسَّ راكان بالمغامرة وهو يتخيلها وسأل مفكرًا بفضول:

- ماذا ستفعلين ؟ من أين ستبدأين ؟

تذكر موعد الغداء ولكن لم يشعر بالجوع ، الفضول يتملّكه يومًا بعد يوم، ولولا وعده في بادئ الأمر؛ لأخذ في قراءة آخر صفحاتها ، ولكن وعده ألزمه أن يتابع سير القراءة وأيضًا لشدة لهفته على معرفة مغامراتها الليلة.

قد مر شهر من العُطلة وتبقى مثيله ، وما يضيق أنفاسه أنه لم ينته من لوحته إلى الآن، أخذ دفتره ونقش بعض الأفكار، أعجبته إحداهُنّ ، تنهَّد بارتياح ، ولاحظ أن انبعاث ضياء الشمس قرر الذهاب من دوامه،

ابتسم وهو يتذكر موعد تمردها كل مساء؛ اجتاحته رياح الاشتياق لها، وأخذ المذكرات وبدأ وهو يهمس:

- ماذا فعلتِ يا سندريلا؟؟

كان سلاحي الذي استخدمه هو الليل الذي يماثل ردائي، الظُلمة تختارني وأجد مَأْربي بها، بوجه متخفي ونظرة عيني أشد ظلمة من أمسيات انتقامي ، راقبتها جيدًا من بعيد مثل ما فعلت بالسابق ، في البداية لم أجد شيئًا يمكنه مساعدتي، ولكن بعد عدة أيام ،لاحظت وجودها الليلي المتكرر بداخل المستشفى، بدأت أشك حتى استطعت الدخول من طريق ركن السيارات بالمستشفى ،أعرف كل الطرق هنا ألم يكن مكان عملي لعدة سنوات خلت ؟

رأيتها تسير بأحد الطرقات الفارغة للطابق الأخير بالأعلى ليلاً، تترقب جهة اليمين تارة، وجهة اليسار تارة أخرى ، ويبدو عليها التوتر والقلق.

خلعتُ حذائي حتى لا يحدث صوتًا ينبهها بوجود أحد، وتسللتُ ببطء وهدوء خلفها وأنا أحتمي ببعض الحوائط عندما تلتفت ، وبدأت أتأكد بوجود شيء مُريب يجعلها تسير في هذا الطابق الفارغ بهذا الشكل، حتى دخلت غرفةً ما، وقفتُ بالخارج وكتمتُ صوت أنفاسي حتى لا يلفت انتباه أحد في هذا الفراغ، سمعت صوتها الصادر من الغرفة وهي تتحدث مع أحدهم ،وتقول أن غرفة العمليات تم إعدادها ، ويجب توخِي الحذر مع الإسراع، قبل أن يأتي الحشد الصباحي من العاملين بالمستشفى والزوار، ثم طمأنتهم قليلاً إنها أخلت الطرق بالخارج من عاملي الدوام الليلي؛ ابتسمت بحدة ،فهي بدون قصد قد مدت يد المساعدة لي حتى أدمرها بكل ترحاب ، واستوعبت سبب خلو المكان

وهذا الفراغ ، بدأت الخطة التالية تنسج خيوطها بسرعة البرق ، ذهبت بهدوء إلي غرف العمليات، ولكن وقفت بحيرة ، أي غرفة تقصد ؟؟؟

فهناك ثلاث غرف: اثنتان يستخدمهم الأطباء في إجراء العمليات الجراحية ،والثالثة لا تُستعمل إلا قليلاً ، نظراً لقلة الأجهزة الطبية بها، زفرت بضيق حانق لهذه الحيرة التي تبصق رذاذ الفشل على انتقامي، وراودتني خاطرة سريعة ، فالأحق أن يستخدموا الغرفة الثالثة ؛ لقلة استخدامها ولن يكتشف أحد أمرهم ، دخلتُ سريعًا إلى الغرفة، وأغلقتُ الباب خلفي بإحكام وأخرجتُ هاتفي من الحقيبة الصغيرة التي جمعت بها كل شيء ممكن أن أحتاجه ، ووضعته في زاوية مخفية بعيدة وصعبة الاكتشاف ، وثبّت الهاتف على مُشَّغِل الفيديو ،حتى أتت أصوات أقدامهم بالخارج ، واختفيت بمكان بعيد خلف الستار .

انتابني القلق أن أكون اخترتُ الغرفة الخطأ، فلن تتكرر هذه الفرصة مجددًا، مع كل خُطوة يدق نبضي تمنّيًا ، تقترب الخطوات وتقترب وأنا أهمس بخفوت:

- إلى هنا، إلى هنا.

رَجْفة مخيفة تَصْدح في أرْوِقَة نفسي وتتوعدني إن انهزمت اليوم، كرقبة المذنب تحت أثير حد السيوف ، ودبَّ بأوصالي الخور الواهن، حتى فُتحت الغرفة وفُتح بريق الأمل والانتصار .

" إذاً فلنبدأ اللعبة "

أتى بعض الرجال مع زميلتي الممرضة، ومعهم رجل لا أعرف أن كان على قيد الحياة أم لا ، وهو مُسجّى على عربة مسطحة يجرونها،

من أحاديثهم تأكدت أن الأمر يخص تجارة الأعضاء البشرية، وبدءوا إجراء استئصال الأعضاء ، انشغالهم وسرعتهم المتوترة في الانتهاء، ساعدني في التخفي عن أبصارهم ، بدأ ينفد صبري من الانتظار وكثرة الوقوف ، والأخطر من ذلك تبقى ساعة تقريبًا على وقت الضحى ، بعد مضي نصف ساعة أخرى، انتهت العملية وخرجوا مسرعين ومعهم الرجل ، وأخفوا كل شيء يثير الشك وراءهم ، بعد خروجهم التقطتُ أنفاسي المتسارعة وركضتُ إلى الهاتف ، وحفظتُ مقطع الفيديو المطول الذي تعدى ساعتين.

خرجتُ من الغرفة إلى الخارج بنفس الطريقة التي دخلتُ بها، وتنفست الانتصار، أسرعت إلى المستشفى ، واستغرق الطريق وقتًا حتى وصلتُ أمامها ، كانت الممرضة تنتظرني بغضب بسبب تأخري، دخلتُ إلى غرفتي ، ولكن صُعِقْت ببوادر الضياء المطلة من النافذة، تخنق سُكنان الأخرى؛ لتظهر سُكنان القلب ، وقفت بلا حراك . نظرتي مصوبة باتجاه انعكاس مظهري على زجاج النافذة، رداء أسود، وجهي مخفي، اقتربت ببطء حزين ،وبدأت دموعي تشق طريقها، رفعت الغطاء عن وجهي ، وسألت نفسي برعب:

- من أنا ؟ ماذا حدث ؟ لماذا أرتدي هكذا ؟ !!!

ضغطت أناملي على وجهي بحرقة أشعلتها دموعي المتألمة على هذا الانقسام الشرس للنفس ، خلعت الرداء الأسود وكأنه مُحَمل بالبُهْتان والآثام؛ لأعود لفراشي بقلب مُكبل بالأحزان، خلال ساعات النهار، رفضتْ جفوني إظهار ضعفي ودموعي ، تظاهرت بالنُّعاس وآلاف

الأفكار تجيء وتذهب، ثم تعود مرةً أخرى ، ولا يغرب عن قلبي الأنين والحنين للعودة ، وبيدي مقاليد نفسي من جديد ،هل هذا أمل بعيد ؟؟

رواسي الأحلام القديمة أصبحت رميمًا بعد أن حاق بها دروب الانتقام، أتت السهرة المسائية؛ ليتسلط ضوء القمر على بقاع القسوة بي؛ ليدمر القضبان بداخلي ويشير لها: هيَّا.

ردّ راكان بقوة:

- القانون سُكنان ،القانون ، أحسنتِ صنيعًا بهذا الدليل الموثق؛ ليتابع وهو يرتشف من فنجان قهوته:

ذهبتُ ككل يوم ولكنّي لم أغب هذه المرة ، جهزت مقطع الفيديو على بطاقة ذاكرة الكترونية ، مع مغلف به شرح البلاغ وأرسلته للشرطة ،وانتظرت حتى يشيع الخبر في الصحف ، وبعد يومين بالضبط، حدث ما أردته؛ لأقفز فرحًا مثل الطفلة، وتبقى آخر الخيط.

أجاب راكان:

- بالتأكيد صديقتك بالتأكيد، ولكن ما الذي ستفعلينه معها سُكنان ؟؟

ما هي خطتك للإيقاع بها؟؟

وتحدث مع نفسه بضيق:

- بلا مبالاة نترك كلمة الحق ونصمت، وحتى إن أحست قلوبنا بالحقيقة، يستمر الصمت، حتى تتعثر أقدام روح بريئة بمنحنيات الظلم، ونظل صامتين، ناظرين وأكثر ما نفعله ننظر

بشفقة، ولا نعلم أن عذابات النفس أكثر خطرًا من جبروت الظالم، ولا ندري كيف يتحول السكون إلى عاصفة لا نستطيع ردعها، ونعود للشكوى والتساؤل : لماذا وكيف تبدلت للنقيض؟

ونعود بظلم آخر وهو التعجب من التغير !!! عجبًا هل أترك غريقاً وأتعجب من موته !

هل أنهش بالحديث في سمعة شخص ما وأتعجب من غضبه !!

فالأفضل ننشغل بأنفسنا ، ونترك حساب الأنفس لخالقها.

وأتبع بتنهيدة طويلة:

- وهذا ما حدث معكِ سُكنان ،أتمنى أن تعرفي أولاً ما دوافع صديقتك لما فعلته ، الأكيد أنها مخطئة وخائنة ، ولكن حتى لا ينهيكِ الندم يومًا ما سأتركك الآن، ولكن سأعود في الغد بيوم آخر، ألقاكِ فيه على طرق مخططة على أوراق بيضاء.

الفصل الثامن

"المواجهة"

أطلت الشمس؛ ليستيقظ راكان وبعد انتهاء برنامجه الصباحي فتح مذكراتها ليوافق صباحه مع أحد أوقاتها الصباحية ، لتستيقظ هي بجسد يُريقهُ الألم من كؤوس لاذعة المذاق ويركض بمجريات الدم؛ ليُسفك شرايين القلب الداعمة ، بأمر من نفس تأبى أن تتوقف من هذا الطريق ومتوعدة لم ولن أسأم التمرد.

في هذا اليوم بالخصوص ،رفضت رؤية أي أحد ،كلما دخل طبيب أو ممرضة أدخل بنوبة هيستيرية من الصراخ ، حتى ابتعدوا بالفعل عني ، وأغلقت بعضًا من قطرات العذاب برؤيتهم ، كنت على شفا حفرةٍ من أواخر طريق الأمل ،إني أغرق بداخلي لم أجد قلبي ليكون قارب النجاة؛ ليحيي بداخلي وجود الحياة ، تعصف عبراتي بأمطارٍ من ألمي ، هذا الانقسام يعكس على قلبي ظلمة قابعة في المستقر ، هذه التيه ترهق خفقات القلب المتألم ، كانت هي بداخلي ،تتمايل مقاليد قضباني بيدها ، رفعت رأسها وبعينيها نظرة آمرة ،وهتفت: سُكنان

اشتد الشريان الذي التقط صوتها، وأشار إلى عقلي به وانتصب؛ ليتجمد جسدي خوفاً منها ،وارتجفت ولم أستطع النطق.

كررت مجدًدا بصياح.... سُكناان

لأبتلع ريقي برعب كشفته هي وابتسمت؛ نطقت بنبرة مرتعدة ومتلجلجة..... ماذا؟

بدأت في الحديث ،بنبرة صريحة وجريئة:

لا تضيعي عزيزتي بالفكر ، وحتى أقرّب عليك المسافات. نعم ،أنا من فعلت ذلك بهم ، أعلم أنك اكتشفت ذلك بالأمس ، ولكن قلبك الطيب يصارع جبروتي ويعترض ، لن أطيل الحديث أحتاج وقتك ؛ انعقد حاجبي استغراباً وتوجساً وأجبت بتوتر وتوجس...

كيف ؟!

أجابت بسخرية : أريد النهار سُكنان ،فالليل قد انتهى دوره عندي ، تلك الخائنة حامل.

اتسعت مُقْلتي بصدمة ،حتى تابعت هي:

لا تتعجبي ، فهذه الحقيقة ومعي الدليل ، ولكن مثل ما فعلتْ هي سأفعل بها وأكثر ، أمام هذا العالم سأذيع سرها ، وأجعلها تتوارى عن الوجوه لبقية عمرها، دب الوهن بجسدي بطريقة أبشع ، وتألمت وأنا أقول باعتراض:

لا، لن أفعل ذلك ، فأنا ذُقت مرارة هذا الكأس من قبل ، صرخت هي وقالت : هذا أمر وليس عرض ، ستفعلينه شئتِ أم أبيتِ ، أمامك يومين فقط ، وستكون هي عادت من سفرها ،هذا ما علمته بالأمس ؛ وضعت يدي على أذني وأنا أحرك رأسي برفض لا ،لن أفعل أبداً، فما أقسى ذلك، حتى وإن فعلت هي ،لن أحاربها بهذا السلاح أبداً .

سكتت..

وتواصلها انتهى معي ، كيف ستجبرني أن أفعل ذلك ،لا ، لن أنحني لها.

وافقها راكان وقال بقوة:

لا تفعلي ذلك ، صممي على رأيك ، ابدأي بأولى خطوات المواجهة ستربحين صدقيني.

وأكمل:

فى معارج الأيام انحدر ، إلى الأسفل لم أرى في المشهد أمامي أي لون ترابي ليد بشرية يشير اتجاه أناملها بمساعدتي ،إلا تلك الطبيبة أُرْسِلت إلي خصيصًا من قِبل بعض الأطباء الذين نفد صبرهم من عِنادي ورفضي لاستجابة برامجهم العلاجية ،

أتت إلي بوجهٍ هادئ ،لم تتفوَّه بحرف في البداية ، جلست على مقعد يبتعد عني قليلاً ،ومواجهاً لي ، استخدمت ابتسامتها البشوشة في الترحيب خوفًا من كسر الهدوء السائد بالتحدث ؛ كنت أهرب من نظراتها المتطلعة ، وهي تنظر وكأنها تفكك شيئًا معقداً لتُعيد ترتيبه ، وأنا أهرب ولكنّي أهرب من نفسي الانتقامية ، تاهت أفكاري وأنا أنظر للفراغ بشرود قبل أن تنتشلني من بحر هذه الظلمات بجملتها ؛ تبدد الشرود قليلا ليتجه كل تركزي على وجهها وأحدق بها بتعجب وعدم تصديق...

كررت الطبيبة جملتها بابتسامة لطيفة :

أنت لستِ مجنونة ،فأنا متأكدة من ذلك.

فوجئت ولكن لم أشعر بشيء من الفرحة أو حتى الارتياح لهذا التصريح، لو تقدم قليلاً منذ عدة أيام لكان عندي يزن هذا العالم بأكمله، أما الآن ، فلا فضلتُ أن أكون مجنونة ومسلوبة العقل وأنا في دائرة الانتقام هذه على أن أكون بكامل قواي العقلية وأفعل ما أفعله وأحتقر نفسي أكثر.

تابعتْ الطبيبة وهي تقترب مني بخطوات تعمدت أن تكون هادئة :

كنت أنظر أمامي وأنا مدثرة في فراشي، بشكل شارد وحزين مما نوت عليه معذبتي ، لم أعرف لماذا لم أصرخ كعادتي لرؤية طبيب ، أحتاج بحق أن أبوح بما يكدرني ويرعبني هكذا.

تحدثتْ معي قليلاً ، حتى بدأتْ شمس الأمل تداعب نسمات روحي من حديثها المريح الهادئ ، وقررت شيئاً ،وقلت فجأة:

أريدك أن تساعديني ،وأخرج من هنا.

فوجئت قليلاً ولكنها ابتسمت برقة وقالت:

حسنًا ، لو أخبرتني بكل شيء أتى بكِ إلى هنا ، سأدعمك.

نظرت لها برجاء وقلت: عديني.

أومأت برأسها وأجابت: أعدك.

أفضيت لها بكل شيء وبكائي يعلو مع كل عثرة مرت في طريقي وأتذكرها الآن ، لمع بعينيها دمعة أحكمتها ،ونهضت وضمتني بقوة ، تشبثت بها أيضًا وشعرت أنها ضمة القلب ،وقالت بقوة:

- سُكنان. ستخرجين من هنا ، سأحارب لأجلك وستخرجين من هنا قبل مرور اليومين

ونظرت لي بقوة وهتفت : لن أجعلك تحت رحمتها ، أبداً.

أرسلت نظرة امتنان لها ،وأتمنى أن تخلصني من هنا بأقرب وقت ،

وقلت:

حمد لله أنك صدقتني ، كنت أخاف أن تعتبريني مجنونة مثل الآخرين.

ابتسمت الطبيبة بلطف وقالت : قرأت ملفك قبل المجيء لكِ ، وكل ما قرأته هو ما أخبرتني به تمامًا ولكن بشكل يُوحِي أنك فعلاً كذلك ، وتلك النظرة المنكسرة بعينيكِ لا يوجد لها وجه آخر ،الصدق فقط ، فأنا طبيبة نفسية وأستطيع أن أفرّق، نهضت الطبيبة ، وأضافت:

من الجائز أن سكُنان الأخرى تسمعنا الآن ، ولكن عندما أقرر أخذك من هنا ، لن أخبرك أنت حتى .

ابتسم راكان بارتياح وقال:

حمداً لله ، وأخيرًا عثرتِ على دعم مثل هذه الطبيبة ذات الضمير الحي والعقل الراجح ، ما أروعكما أنتما الاثنتان

مساء سُكنان المعذبة قد أتى ، لتستنفر من القضبان وتخرج بعد أن تُجمد عقل سُكنان القلب ، ولكن الصدمة في ظهور الطبيبة فجأة وفي أوْج ظهور سُكنان الأخرى، و ألقت على وجهي رذاذ شيء جعلني أفقد الوعي ، ولم أستيقظ إلا صباح اليوم التالي ، في مكان غريب ، وأسمع أصوات مياه متدفقة من الخارج يبدو أن هذا المنزل مُطل على البحر، انتظرتني حتى استيقظت ، فتحت جفوني لتقع نظرتي على وجهها المبتسم ، وقالت:

- صباح الخير

نظرت حولي بتعجب وعقلي لم يستوعب بعد ما حدث ،وأجبت بنبرة ضعيفة : أين أنا ؟ كيف جئت إلى هنا ؟

أجابت الطبيبة وهي تنهض وتقترب من فراشي.

أنا من أتيت بكِ إلى هنا سُكنان ، بالأمس كنت ستهربين من المستشفى مثل ما أخبرتني ،وكنت قد أخبرت مدير المستشفى بحالتك وأقنعته بذهابك ولكن تحت المراقبة، ثم راقبتك لأنني كنت أعلم أنكِ ستهربين.

اعتدلت في جلستي ونظرت لها بتيه، وقلت:

-كيف كنت أبدو؟ هل كان يبدو على وجهي الشر ؟

جلست الطبيبة بجانبي وقالت بلطف:

سُكنان، نفسك ليست شريرة كما تعتقدين، نفسك تتألم، هي ردت الصفعات بمثلها فقط، لا تقسي عليها أنت أيضاً

- بكيت وأنا أعترض هي من قست ،لستُ أنا !

أجابت الطبيبة بهدوء وهي تتنهد بعمق:

نفسك تألمت كثيرًا، ولكن عندما انتقمت لم تسفك الدماء ، انتقمت بشكل عادل ، لذلك تستحق المصالحة ،لابد من التصالح بينكم ، لذلك أتيت بك إلى هنا ؛ لتستعيدي هدوءك ، تقلبت نظرتي بأنحاء الغرفة التي أجلس بها ، وتساءلت:

- هل تمتلكين هذا المنزل ؟

أجابت الطبيبة بابتسامة واسعة ،وقالت :

- لا، هذا منزل يؤجر للعُطلات ،كنت قد أخذت به عطلة السنة الماضية، وأحببته كثيراً ؛ لذلك أتيت بكِ إلى هنا ،هذا أنسب مكان لكِ ، وسأجلس معك هنا.

مر اليوم سريعًا ، لتتعاقب أوجهي ،وتخرج هي في لمحة وطرفة عين؛ تأملتني الطبيبة بعمق وراقبت انفعال تعبيرات وجهي ، وقالت بثبات: هل سمعتِ ما قلته لسُكنان في الصباح؟

أجبتُ بشراسة وأنا أنهض : نعم، ولكن أخطأت ، فبؤر الشر بداخلي تستطيع أن تنسف هذا العالم ،بادلتني الطبيبة ابتسامة وردت : إذاً أنا أمامك ، انتقمي مني فأنا من أتيت بكِ هنا ، ركضت إليها ونظرة الشر تحرق جفن عيني ، ولكن لم أستطع فعل شيء، ولا قلبي أو نفسي

يعلمون سببًا؛ لذلك اقتربت الطبيبة مني ،وزادت ابتسامتها بتأكيد وقالت وهي تضمني بقوة :

أنتِ لست شريرة ، العكس هو الصحيح ، أنتِ مُثْقَلة بالألم الذي صنع أكنّة على قلبك وثباتك ، تجمدت مكاني ولم أستطع الحراك ، وسقطت دموع سُكنان النفس ، وتمتمت بخفوت بنبرة مرتجفة:

ابتعدي ، غير صحيح .

والتفت لجهة أخرى حتى لا ترى الضعف بعيني.

وقفت الطبيبة أمامي مرة أخرى بتحدي:

تلك الدموع تثبت صدق حديثي ،أنت تعشقين سُكنان قلبك ؛ لذلك تثأرين لأجلها، هتفت باعتراض غاضب : لا ،أكرهها .

وتابعت بألم: أكرهها بحق.

الطبيبة بلطف : تحبينها ،كوني شجاعة واعترفي.

يتطاير من عيني الشرر وأنا أعترف صراحة :

"نعم أحبها"

ولكني كرهت ضعفها الذي أذلني وحطمني ، هل تريدين أن أخبرك ؟ حسنًا كيف يكون شعورك وأنت مهانة بذنب لم تقترفيه ؟ وكيف شعورك بظلم كل من حولك ولا يريد أحد أن يستمع حتى لدفاعك ؟وكيف وأنت تشعرين بنار الخيانة من أقرب الناس لكِ ؟وكيف..... ؟وكيف...؟

أشياء كثيرة جعلتني هكذا ، وهم السبب.

قالت الطبيبة : أحييكِ على هذا الانتقام العادل سُكنان ، لم تظلمي أحدًا، مصيرهم هذا ما صنعوه بأيديهم ،ولكن لا تذيقي أحدًا هذه المرارة التي عانيت منها؛تعذبت تعبيرات وجهي وركضت إلى الفراش ودثرت نفسي بالأغطية حتى وجهي ، لجأت للهروب ؛ لتزداد ابتسامة الطبيبة.

في الصباح ،استيقظت بوجه القلب ، لتروي لي الطبيبة ما حدث بالأمس ليلاً ، لأشعر بثقب الأمل المضيء داخلي ،ولكن جاء للطبيبة اتصال مفاجئ على هاتفها يلزمها بالمجي ء إلى المستشفى لأمر غاية الأهمية، واحتارت كيف تتركني

أجبتها بهدوء:

أريد الانفراد بها ، هذه الرحلة لابد أن أخطوها بمفردي ، وإلا ستطول المدة أكثر في هذا المرض ،لابد من المواجهة ؛لتجيبني الطبيبة بدعم:

- سأتركك وأنا أعلم أنني لامست جزءًا مهمًا جدًا في نفسك، وهي حقيقتك الطيبة سُكنان، أعلم أن نفسك تسمعني الآن:

إذا كانت قوية بحق ، فلتنتظرني حتى أعود، وإلا سأعلن ضعفها للجميع.

الفصل التاسع

"شفاء و دعوة"

ذهبت الشمس وأتت هي... سكُنان النفس

جلستُ وأنا أرتجف من البرد ، و أضم رُكبَتي بيدي ،ورجعت السماء تهطل على النوافذ بغموض مُخيف زاد ظلمة الليل قسوة، كمجرمٍ يطعنُ بريئًا بخنجرٍ غدرًا ،أو كفاسق يغرق في بئر العصيان، استمر المطر الصارخ طيلة الليل بلا هَوادة بتُ أخافُ من الليل؛ لأن مُعذبتي تستمدُ قوتها منه، أجبرتُ نفسي على النوم وأنا تتطاير حمم النيران من عيني، حتى أشرق نور الصباح ليُحيي أملاً طفيفًا شِبه منعدمٍ في قلبي، وخرَجتُ للشاطئ بأقدام متراخية ،بِالكاد تتحرك ، في مكان ما، تتكاثر صخور فيروزية اللون بقتامة ، تتوسطهم أعلى ما فيهم ، اقتربتُ منها وأسندتُ بيدي حتى أصل لهذه الصخرة العالية، جلستُ عليها وشردتُ في الأبخرة الضبابية التي بينها وبين المياه، بأسفلها حاجز غير مرئي، أبخرة ثلجية اللون لم أعرف ولكن شبهتُها بنفسي ،تماماً مثلي!

راقبتُ المياه وهي تطرد البرودة القاسية من داخلها بسبب دفء أشعة الشمس الصباحية الخفيفة ،لتتجمع البرودة على هيئة ضبابية معلنة تحديها بتمرد يأبى الرحيل، هكذا أنا.

أستمد قوتي الصادقة في نور الصباح ، والوجه الآخر لسُكنان، يُعلن غضُبه ليلاً، وأعودُ صباحاً وأنا أئن ألماً وأحاول طردها من داخلي، طرد قسوتها التي أظلمت روحي ،وجعلتني أعاني هكذا.

نعم، إنني أعاني ،أتألم ،أصرخُ بصمت .

اتصلت بي الطبيبة معتذرة لتأخرها لعدة أيام أخرى واطمأنت على حالتي وكيف سارت الأيام الفائتة ،وشكرتها لمعروفها معي حتى في أبسط التفاصيل ،لم تترك شيئًا حتى الطعام كانت ترسله لي من خلال مطعم قريب من هذا المنزل رغم رفضي لذلك .

مرت الأيام على راكان وهو يتتبع سَيْر أيامها ، صباحًا ومساءً هنا تبكي، وهنا تنام ،وهنا تتيه بمخيلتها للبعيد ، حتى تبقى أسبوعان على انتهاء عطلته ، كان قد صمم لوحته الأخيرة ولكن يبدو أنها لم تحمسه أيضًا.

ذات صباح استيقظ وقرر إنهاء آخر لمسة في لوحته ، حتى أتى وقت ما بعد الظهيرة ، وقد انتهى هو بابتسامة ، ولكن سبب ابتسامته أنه سيعود لفتاة الورق ومذكراتها، وقال بابتسامة:

- اشتقت لكِ سُكنان بحق ، رغم أن فترة الغياب هي عدة ساعات فقط.

وتابع قراءة:

أصبحت رفيقة يأسي الذي شق طريقًا إلى قلبي ؛ليصنع جسوراً صُلبة

تعبرُ من خلالها الآلام ،وجئتُ إلى هذا المنزل ،جئتُ وأنا أهرب من كل ما عانيته سابقاً ،ناشدتُ الوحدة ؛ كي تُخْضع سُكنان الأخرى لإرادتي.

للمصادفة الغريبة ،تشابه اسمي مع كياني وأوجه نفسي... سُكنان، أصبحت اثنين في جسدٍ واحد : سُكنان الروح المعذبة من ظُلم وبطش الآخرين ، وسُكنان الجسد الذي اختارها قلبي ليكون معها ، وأصبحت سُكنان القلب ،أما عقلي فَتَاه بيننا!، فأصبحتُ القلب الذي لا يريد الإيذاء، والنفس الانتقامية التي انفصلت عني ،وشرخت هذا الكيان فأصبحتُ هشيماً ، لم يحدث بيننا تواصل خلال هذه الأيام ،وكأنها تعاتبني بصمت، هي من بيدها كل شيء ،تخرج وتدخل بداخلي ،تعلم كل شيء حتى وهي بالداخل وقيَّدتني أنا بداخل ضعفي حتى ما عدتُ أعرف أي شيء،

كان الوقت ما بين النهار والليل والشمس تستعد للاختفاء ،اقتربتُ من شاطئ البحر وأنا تائهة بداخلي مثل موجاته المتلاطمة ،وجلستُ على صخرة يتدفق بجانبها الماء المندفع على الرمال بحيوية ونشاط ، كان ضوء الشمس يسترسل وراء الغيوم بوعد وجودي بعودة اللقاء:

جلستُ وأنا تائهة ، سُكنان روحي أصبحت عدوتي الأولى ،إلى أين ستوصلني ؟؟ متى ستتركني ؟؟

لا أريد الانتقام من أحد ،لماذا تريدينه يا نفسي إذاً ؟ وضَعتُ يدي على وجهي وأجهشتُ في البكاء وأصابع قدمي تغطيها المياه الباردة ، وصرختُ وأنا أتألم ، " كفى سُكنان ، كفى يا توأم الروح "!

لمعت في ذهني فكرة مجنونة ، رَفعتُ رأسي مجدداً للمياه ولاحظتُ أبخرتها التي تدل على شدة البرودة ، ولكن هذه الفكرة استولت على عقلي فجأة ، نهضتُ من على الصخرة ،وشعرت أن سُكنان الأخرى هي التي تدفعُني من داخلي.

قام راكان من مقعده بقلب يرْتَجف خوفًا ،وبلع ريقه وهو يُكمل قراءة، وبدأ يشك بماذا دفعتها الشخصية الأخرى للإقدام عليه ،وقال بحدة وهو منفعل:

- لا سُكنان ،توقفي ،أرجوك توقفي ،حبيبتي .

أطبق جفونه بقوة ،وبتنهيدة طويلة متألمة ،اعترف قلبه لفتاة الورق أخيرًا ، فتح عينيه و كرر ما قاله وهو ينظر لمذكراتها وكأنه يحدثها ويتوسل إليها كي تتراجع ،وهتف:

- لا حبيبتي ،من أجلي ، من أجل لقائنا الآتي ، أرجوك توقفي، ليس بعد أن أحببتكِ.

وركض للخارج وكأن كل ما يقرأه يحدث في هذه اللحظة ،كانت أجندة المذكرات بيده ممسكًا بها من المنتصف ، حتى توقف عن القراءة وهو مندفع إلى الشاطئ، ونظر من بعيد للصخرة ذاتها التي كانت تجلس عليها ، كما وصفتها تماماً، كانت أطراف الأوراق تتطاير وكأن شيئاً يقول له لا تكمل ،توقف عند هذا الحد ، لا تتعلق بالمجهول.

تاهت الصفحة التي كان يقرأ فيها بسبب شدة الرياح ،وبحث عنها بشكل جنوني وكأنه يبحث عن حبيبته بين الكلمات ، وكأنها ستغرق بين هذه الأحرف وليس بأعماق البحار.

وجدها بعد دقائق ، وبحث إلى آخر صفحة قرأها ،وأكمل قراءة:

وشعرتُ أن سُكنان الأخرى هي التي تدفعُني ؛ تقدمتُ بخطوات للأمام وقدمي تَنْزَلق أكثر فأكثر في الأعماق ،أذهب إلى اللاشيء بأوجه نفسي التي تماثل لوحة الشطرنج ،وجه أبيض والآخر أسود قاتم ، والأغرب أني لم أجد اعتراضًا من أي منهما ، استسلمت الفتاتان بداخلي والتزمتا الصمت، ولأول مرة تتشاركان وتتفقان على شيء ،تقدمتُ أكثر فأكثر حتى وصلت المياه إلى عنقي ، والبرودة كانت تنهش عظامي ولكن عذاب روحي فاق كل ألم ؛حتى أصبحتُ لا أبالي بشيء ،وأخيراً اختفيتُ تحت المياه بهدوء.

صرخ راكان بأعلى صوته وهو يَقْطر ألمًا وحزنًا:

سُكناااااااان ، لاا .لا ترحلي.

ونظر للأسفل وترقْرقت عيناه بدموع نادرًا ما تسقط ،تضاربت موجات البحر بشدة وكأنها تتذكر هي الأخرى ما حدث،ماثل قوة صوت انجراف المياه نحو الشاطئ القريب منه ما حدث لسُكنان بعد ذلك أثناء حزنه في هذه اللحظة، وقعت عيناه على كلمة انتشلته من أحزانه من جديد.

وقرأ:

واندفعتُ لخارج المياه وأنا ألهث ، سُكنان القلب أبَتْ أن أستسلم لم تتركني لضعفي ، ولكن السؤال هنا:

أين سُكنان الروح المعذبة ؟ لماذا رضخت لسُكنان الجسد بهذه السهولة غير المعهودة عليها !!!

أم تتوعدني بمزيد من العذاب لاحقاً ؟ !

ابتسم وهو يشعر أن موجات هذا الشاطئ انتقلت بداخله وأصبحت تَتَهَادَى بأعماق قلبه ووجدانه بعشق .وقال وهو فخورٌ بحبيبته الورقية:

- أحسنتِ يا فتاة ، حقًا أنا فخور بقوتك ، أحبك.

أحبك سُكنان ، أحببت حتى سُكنان روحك المعذبة، فُتنتُ بكِ وبقوتكِ، وبكل شيء ، لم أرَ فتاة مثلك من قبل ،وضم المذكرات بقوة وقرر شيئًا ما ،ذهب مسرعًا إلى مَرْسَمه ،ووضع لوحة جديدة بيضاء ، ومسك قلمه بثقة، وبدأ.

مضى عدة ساعات وألقى فيها كل صفة وَصَفَت بها نفسها ،كل شيء أحس به ؛لتكتمل ملامحها على صفاء اللوحة،نظر لها بتمعن وابتسم وقال بحماس:

لوحتي الأخيرة

وأخذ مذكراتها مرة أخرى بلهفة وأكمل:

بعد هذا الحدث ،توجهت إلى المنزل بأقدام تلتصق بها رمال الشاطئ ، وأنا أعلم أنه تبقى على ظهور سُكنان الأخرى القليل ، اغتسلت سريعًا، وتوضأت فهذا قرار القرب؛ثبَّت التلفاز على قناة القرآن الكريم ، وفرشت سجادة الصلاة ،وألقيت بعذابات نفسي في الصلاة ، بكيت بقوة وانتفضت من البكاء وأنا أتوسل لرب العالمين أن ينقذني ، بكاءً صادقًا نابعًا من هذا القلب المتألم المُنْهك، لم أترك الصلاة ،استمررت في السجود وكنت أطيل السجود كثيرًا ، حتى ظهرت هي، ورأت نفسها

ساجدة وعينيها تبكي بحسرة ،لتشهق من البكاء ، وفجأة انتبهت إلى صوت صادر من التلفاز :

بسم الله الرحمن الرحيم

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) صدق الله العظيم

لينفتح لسُكنان القلب أحد مقاليد القضبان، ورددت بقوة مستعينة بآيةٍ أخرى من الذكر الحكيم..

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) صدق الله العظيم

ارتفعت يدي ولكن بإرادة سُكنان نفسي المعذبة ؛ لتبكي وهي تستغفر ربها على كل ما مضى من بُعد وترك الصلاة وترك أكثر العبادات؛ ليصنع هذا ثقوبًا روحية تجذب الأمراض النفسية بمنتهى السهولة . وبعد أن انتهت ،لم تقم من الصلاة ،وحدثتني:

سُكنان ،أنا وجهك الآخر حبيبتي ، أردتُ الانتقام مِن كل شخص أراد أن يؤلمك ، لم أكن أريد تعذيبك ،ولكن تعذبت معي ،سامحيني ،فأنا تعذبت أكثر بكثير، حتى جئت يومًا أردتُ فيه المواجهة بيننا ؛لنتصالح سُكنان ، إني أحبُكِ ،صدقيني ،سأعود لمقعدي بداخلك بعد أن شُفيتُ ، شُفيتُ بعد عودتك أنت لطريق الله ،لا تضلي الطريق مرة أخرى أتوسل إليكِ ، أحيطيني بالعبادات حتى لا تجعلي ثَغْرة لشيطانك أن يتسلل مني إليك

من جديد، ويعذبنا معًا،أنا نفسك الأمّارة بالسوء ، أنا نفسك الضعيفة الشَقية ،فلا تضعفيني أكثر،فلتجعلي ضعفك فقط في السجود لرب العالمين ،ستقوين . مَن يسلك طريقًا إلى الله لن يضل أبداً ،قوّي قلبك بكلمات الله ،اجعليه يرتجف خشوعًا ويتسرب عبر الشريان دماء جديدة تجدد الحياة بداخلك ، وتُطَهرني كنفس ذاقت وتجرّعت كؤوس المر كأسًا بعد كأس، ولكن لا بأس . فإنكِ وجدتِ الطريق، كإنقاذ غريق.. أنقذتني.

تسلّحي بالدعاء، سيكون الطريق إلى تحقيق الأحلام . وستتحقق... هذا وعد الله .

إن الله قريب سُكنان ،إنه قريب.

ارتعشت أوْصالي من قول نفسي وحديثها الهادي بعد عاصفةٍ هوْجاء ، بكت عيني فرحاً وعودة ،وبكت نفسي بداخلي معي دموعًا واحدة من نفس الأعين ، وضمتني بقوة عبر جدران القلب ، طوقتُ نفسي بكلتا يدي أرد لها هذا العناق بعناق أقوى حبًا ، وكلانا يبكي ،رددت بداخلي بصوت يرتجف من التأثر والدموع:

أحبكِ سُكنان ،أحبكِ.

أجبتها بسرعة ولهفة : وأنا أيضًا ،أحبكِ .

سأهديك لَذة الخشوع لرب العالمين في جوْف الليل ،سنتشارك سويًا في هذه الراحة ،فلنندمج مرة أخرى في جسدٍ واحدٍ .وهذا الانقسام يَفْنى، ونلتئم من كسر هذا الكيان المُنْهك.

ردت بهمس :

فلنبدأ من جديد ، ثم قالت بقوة:

سُكنان ، أنا الآن أسكُنك ، سأنير هذه الظلمة بنفسٍ شُفيت من الغيظ والغضب.

الآن عادت سُكنان إلى وحدتها النفسية ، نُشلت من بئر الضجيج بداخلها وأصبح هذا الشرخ النفسي وكأنه كابوس واستيقظت منه أخيراً.

بعض من حصون قلبي المنهارة.

عاد؛ ليلتئم.

وأنا أراقب من بعيد وأبتسم.

وأصمت أمام قلبي الفَتِي.

الذي يصرخ بي.

ويناشد أسواره المائلة.

لكي تعود وتستقم

أقلبي هذا ؟؟

أم لأحزانه ينتقم.

الإرادة، إذا أردت أن تصبح صالحًا ستستطيع، سيمر وقت طويل، ستخدشك بقوة بعض رغباتك ، ستضعف ،ستتألم وأنت تحارب هذه الحرب بداخلك ، ستنظر أمامك للملذات ويدفعك شيطانك ويسهل الأمر ويجعله هيناً .

ولكن... لا تفقد هذا الضوء الصغير بداخلك ، ضوء الضمير ،لا تُلْجمه، اجعله يؤلمك ،يُبكيك ، يُعذبك ،ينقص من متعتك المحرمة .فهذه نعمة الله علينا ، سيأتي يوم وتعود إلى سكناتك الحقيقية لإنسان حاول وقاوم أن يتغير ، وعاد واستفاد ؛لتعود أنت بشكل جديد .... حَيّ على الفلاح.

الفصل العاشر

"رحل و ترك مذكراته"

شعّ قلبه سعادة وعشقاً ،حبيبته شُفيت ، كانت شجاعتها فائقة لهذه المواجهة الصعبة ،ولكن بقلب أَبَى الاستسلام لمدار الانتقام ، حارب وبحث عن مصدر الضوء ،وأضاء عتمته من جديد ، مذكراتها كانت بجواره ،نظر لصورتها على اللوحة بمحبة وأخذ في القراءة مجدداً.

نهضتُ بعد انتهاء الصلاة لتتبدل نظرة عينيّ بلمعة مضيئة سعيدة، إنه الليل وأنا سُكنان.. بكامل كياني المتوحد ،انتهى الانقسام بمولد نفس شُفيت من أعقابها.

لأول مرة منذ مدة بعيدة أخلد للنوم بهذا الثبات ، حتى أشرق الصباح، استيقظت بكسل والابتسامة ظهرت على وجهي لا إرادياً ،لأبدأ بأول يوم شفاء.

مضى بعض الوقت وأنا أرتب في المنزل بضحكة طفولية بدون أسباب، ليقرع جرس الباب ، اقتربت لأعرف من الطارق ، لأفاجأ.

سأل راكان نفسه بقلق:

مَنْ الطارق سُكنان ؟ !توخِي الحذر !!!

ليفاجأ هو أيضاً عندما انتقل إلى الصفحة التالية إنها النهاية ، لا يوجد شيء ليقرأه ، قلّب الصفحات البيضاء بجنون ولكن لم يجد شيئاً ، إذاً أين الصفحات المفقودة ؟ !

شعر بالضيق يغمره ، ونهض بقوة وعزَمَ على شيء ، اتصل بمالك المنزل ولكن لم يُجدِ الاتصال فائدة ، فمالك المنزل لا يعرف عنوانها، عاد إلى مرسمِه ،وأحس بالحنين والحزن يَسْرِي داخل قلبه ، رسم صورتها مرة أخرى ثم رسم صورته بجانبها ، وكتب لها في دفتره الخاص كيف عاش معها ومع كل يوم عانته ،كيف أحس بها ،كيف أحبها.... أخذ مذكراتها وترك مذكراته هو... .

وفي اليوم التالي سافر ،وترك اللوحة التي يوجد هو بها ،وأخذ اللوحة المنفردة لها ، لوحة تعبيرية تتضمن معاناتها ،علها تأتي بحثاً عن مذكراتها، بكل الطرق لابد أن يجدها..

****

بعد العودة من رحلة العمرة بعدة أيام

عزمتُ الأمر أن تذهب إلى المنزل الذي أقامت به خلال مرضها النفسي وذلك بعد اكتشافها أنها فقدت مذكراتها وتركتها بالخطأ هناك ، في الطريق كانت تبتسم بين الحين والآخر، هذا الصفو النفسي لشي ء عظيم بعد هذا الإعصار الذي عانته منذ فترة.

بعدها قررت أن تذهب للعمرة حتى تختم هذا التصالح النفسي بشكل يليق بهذا الطريق الجديد الذي سلكته ، طريق الالتزام والاستقامة الذي بدأته بأول خطواته وهي:

الحجاب... كانت تنظر كثيراً لنفسها أمام المرآة وتبتسم بسعادة ، وهي ترى لمعة عينيها المضيئة براحة وفرحة ، وهمس السكون لقلبها برقة مثل الطفل الذي يتدلل حتى ذهب في سُبات عميق، بعد ساعات سفر طويلة توقف السائق متذمراً ،وذلك لازدحام المارة بشكل مزعج ويثير الدهشة..

تساءلت سكنان بتعجب وهي تنظر من خلال النافذة :

- لماذا الطرق مكتظة هكذا ؟ !من المفترض أن هذا المكان يأتي إليه الأشخاص لطلب الهدوء، تابعت وهي تزفر بضيق من شدة حرارة الطقس :

- لم يكن هكذا عندما أتيتُ إلى هنا!!

أجاب السائق ثم انعطف يميناً ويداه على مقود السيارة وجبينه يتصبب عرقاً:

- لا أعلم سيدتي ،أتيت بالقرب من هنا مراراً ولأول مرة أرى هذا الازدحام.

وأكمل بسخرية : هل يوزعون ورق اليانصيب ؟!

طرق الصداع في رأسها ثم أضافت وهي تتنهد بنفاذ صبر:

- هل تستطيع السير في هذا الزحام؟

أومأ السائق برأسه بثقة وأجاب:

سأستطيع بالتأكيد ،ولكن سيأخذ الأمر مني وقتاً إضافياً حتى أصل إلى العنوان المطلوب ؛ ردت وهي جالسة بالمقعد الخلفي وأخرجت من حقيبتها زجاجة ماء صغيرة.. وقالت بلطف قبل أن ترفع الزجاجة إلى فمها لتشرب:

- حسناً ،فلتسرع قدر استطاعتك.

كلما تحركت السيارة ازداد الزحام بشكل يحمل من الغرابة ما جعلها تندهش هتفت للسائق بعد أن نفذ صبرها من كثرة التوقف :

توقف أرجوك، وسأكون شاكرة إن انتظرتني هنا لبعض الوقت رد السائق مستفهماً:

هل ستتأخرين ؟

أجابت وهي تفتح باب السيارة وتخرج منها :

سأحاول أن لا أتأخر، وأخرجت بعض النقود وأعطتها له ،أخذ السائق النقود من يدها وأضاف:

أمامك خمسة عشر دقيقة ،إذا تأخرت عن ذلك سأذهب.

سُكنان بموافقة : هذا جيد..

ابتعدت عن السيارة ،ونظرت للحشد الهائل أمامها بعدم فهم ، ولكن لاحظت من هيئتهم أنهم مجموعات من بلدان مختلفة ، وبينهم صحفيون يحملون كاميرات معلقة على صدورهم.

تساءلت.. ما السبب ؟ وكيف ستدخل بينهم وتتزاحم حتى تصل إلى المنزل ،مرت بجانب أحد الاشخاص الذين يتحدثون بحماس ولم تنتبه جيدا للحديث ، تزاحمت حتى وقفت أمام حارس البوابة الرئيسية للمنزل الذي لم تره من قبل ، قالت متسائلة عذراً ، هل لي أن أعرف ما سبب هذا الحشد ؟ !

رد الحارس بتأفف وهو يقبض بيده على هاتف خلوي وأشار لأحد الصحفيين بعدم الاقتراب، ثم أجابها بإيضاح وأشار بيده على مجموعات السياح حولها:

- هؤلاء أتوا ليشاهدوا المنزل الذي كان يقطن به الرسام المشهور راكان فخر الدين.

أجفلت باضطراب وهي تشعر بشيء غريب مرَّ عبر أنفاسها ،استطردت في القول: هل يوجد أحد بالداخل ؟

أومأ الحارس رأسه بالإيجاب، وقال:

نعم ،شقيقته بالداخل ،وهي المسئولة عن المنزل حتى يعود.

رمشت عينيها برجاء وقالت بلطف:

هل يمكنني مقابلتها ،أرجوك ؟

تأسف الحارس معتذراً وقال:

آسف سيدتي ،فهي ترفض مقابلة الغرباء ، تنهدت سكنان بضيق وهي تمط شفتيها وظهر العبوس على وجهها وقالت:

أرجوك ،إنني فقدت شيئاً بالداخل منذ فترة ،كنت أقيم هنا سابقاً.

رد الحارس بحنق وهو يلتفت لأحد الصحفيين القادمين وقال مسرعاً ينهي الحديث :

هذه أوامر سيدتي ،ولا أستطيع مخالفتها.

انعقد حاجبيها باستياء وعادت أدراجها إلى سائق سيارة الأجرة ،ودخلت السيارة بوجه مُمْتقع.

سألها السائق : أين الوجهة ؟؟

امتزج الضيق مع أنفاسها وهي تتنفس بعمق ،وأجابت:

إلى أقرب فندق من هنا.

بعد نصف ساعة ،أوقف السائق السيارة أمام أحد الفنادق المناسبة للإقامة لفترة وجيزة ، ترجّلت من السيارة ،وأعطته أجرته مرة ثانية ثم ذهب.

بعد عدة دقائق أنهت فيها حجز غرفة ،صعدت غرفتها بالطابق الثاني ، وألقت بنفسها على الفراش من شدة الإرهاق ، وغفت لفترة طويلة حتى استيقظت ليلاً ، أدّت فرضها ،وجلست أمام التلفاز وتنقلت بين القنوات

لتبحث عن شيء تشاهده ، ووقفت عند برنامج ديني ، وبعد قليل أتى موجز الأنباء بفقرة إعلانية ليبث أخباراً عاجلة تحدث الإعلامي بشكل رسمي ،وقال بعد عدة أخبار هامة هذا الخبر:

يستمر معرض الرسام العالمي المشهور راكان فخر الدين لليوم الخامس على التوالي ، ويستمر لغز فتاة اللوحة دون أي ظهور لها بالرغم من بحثه عنها وإعلان حبه لها، انتقلت سُكنان لقناة أخرى دون أن تسمع باقي الموجز ،وضعت" الريموت كنترول" بجانبها وهي تنهض واستلقت على الفراش شاردة:

هل يوجد رجل يحب امرأة هكذا لدرجة أن يعلن حبه في الصحف ؟!

ابتسمت وهي تتمنى بداخلها أن تجد رجلاً يحبها هكذا ، وتردد اسمه بذاكرتها ،فهذا الاسم سمعته من الحارس اليوم.

إذاً المنزل أصبح يملكه هذا الرسام !! ولماذا معجبوه تركوا المعرض وازدحموا أمام منزله ؟ !

استمرت تفكر كثيراً بدون فائدة ، حتى أتت صلاة الليل ، قامت لتؤدي فرضها ، وفي السجود تتحرر النفس من القيود لتسبح في السلام والراحة حتى تعود، دعت ودعت ،دعت بأشياء كثيرة ،بكل أمانيها، ودعت أن يُيسر الطريق لها غداً حتى تجد مذكراتها وترحل بهدوء.

مالت أشعة الشمس على ستائر غرفتها صباح اليوم التالي بشكل جعلها تبتسم، عندما فتحت جفونها ،أحست بقشعريرة غريبة تسري في جسدها بعد هذا الحلم العجيب ، ولكن ألقت السبب على تفكيرها طيلة ليلة

الأمس بخبر فتاة اللوحة وتمنت أن تجد رجلاً كهذا ، ولكن الأحلام ستظل أحلاماً في النهاية.

استعدت بعد الإفطار وذهبت إلى المنزل مجدداً ،استقلت سيارة أجرة وذهبت ؛ تكرر زحام الأمس بل كان أكثر اليوم ! ترجّلت من السيارة ودخلت وسط الزحام مجدداً ولكن!!

نهض الحارس بمجرد أن رآها وركض ناحيتها في حين أنها كانت تتجه له وهي متوجسة من تكرار المحاولة اليائسة بالدخول.

اقترب إليها مسرعًا ووقف وهو يلهث ،وقال بأنفاس متسارعة:

حمداً لله أنك أتيتِ مجدداً ،تلقيت توبيخاً هائلاً من سيدتي بالأمس وذلك عندما أخبرتها بالصدفة عن مجيئك وسبب طلبك مقابلتها.

شعرت بالارتياح وهي تسمعه ،وأحست أنها أخيراً ستنال مرادها .

وسألت بلطف :

هل يعني ذلك أنني سأقابلها ؟

أجاب الحارس بإيماءة موافقة من رأسه ،وقال بجدية :

من فضلك يا آنسة ،فالسيدة تنتظرك.

تنفست الصعداء وهي تذهب مع الحارس إلى داخل المنزل مما أثار احتجاج الصحفيين والزوار بالخارج ، دخلت سُكنان المنزل ،ودُفعت بوجهها مرارة الذكريات القاطنة هنا، ومع ذلك تحب هذا المكان كثيراً

فكان أيضاً نقطة تحول كبيرة في حياتها ،وشاهد على جميع معاركها النفسية القديمة ،التي اجتازتها بتفوق وفخر وخرجت وهي بكامل قوتها.

انتشلها من شرودها صوت أنثوي رقيق أتى من خلفها ، استدارت بسرعة لتشاهد امرأة وعلى وجهها ابتسامة لطيفة.

اقتربت سوزانا منها وقالت بتحية :

سوزانا ،اسمي سوزانا ، صافحتها سُكنان وردّت التحية ،وابتسمت وهي تقول:

أهلاً بكِ ،سعِدتُ لمقابلتك سوزانا ، أنا سُكنان.

سوزانا بابتسامة متسائلة وكأنها تريد التأكد من شيء ما..

هل أنت سكنان قدري ؟؟

أجابت سُكنان باضطراب وقلق واعتقاد داخلي يشير إلى المذكرات ،

أومأت برأسها بالإيجاب ،وقالت:

نعم أنا هي،رفعت سوزانا رأسها ووضعت يدها على وجهها وتنفست بقوة،

وقالت بارتياح: حمداً لله ،لم أصدق أنكِ هنا ، لم أصدق حدْسه وهو يؤكد أنك ستأتي ، هذا الخبر لو وصل راكان سيأتي راكضاً إلى هنا ويترك معرضه وكل شيء

سكنان بعدم فهم : عذراً!!

ضحكت سوزانا وهي تمسك يد سُكنان وتجذبها باتجاه الطابق الثاني، وهي تقول:

ستعرفين كل شيء ،هيّا معي.

في الطابق الثاني ،وبالأخص في مَرْسَم راكان ،رمقت سكنان المكان بنظرة متعجبة فهذه الغرفة كانت فارغة تقريباً.

التفتت سُكنان بجانبها ونظرت لسوزانا وكادت أن تتحدث .

قاطعتها سوزانا قائلة بغمزة ،وهي تقترب من خزانة صغيرة وفتحتها لتأخذ دفتر المذكرات الموجود داخلها ،تأكدت سُكنان الآن من شكوكها، إذاً هذه المرأة قرأت مذكراتها ولكن لم تفهم أمر راكان!

مدّت سوزانا يدها بحقيبة المذكرات إلى سُكنان ، أخذتها سُكنان بلهفة،

ابتسمت سوزانا وقالت بصدق وهي تَرْبُت على كتف سُكنان بحنان : اقرأي بقلبكِ يا سُكنان ،راكان يستحق.

أجفلت سُكنان بعينيها وبدأ يمتزج الشك والفضول بداخلها ،وأضافت : آسفة ، لم أفهم !

أشارت سوزانا إلى مقعد بالشرفة ،وهَمَّت بالخروج ولكنها توقفت عند الباب وابتسمت بمكر، وقالت:

بمجرد القراءة ستعرفين كل شيء ، سأرسل لكِ بعض الأطعمة السريعة وفنجان قهوة ، ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها بهدوء قبل أن تعترض

سُكنان ،تعجبت سُكنان من الأمر ،فهذه مذكراتها الخاصة ،لماذا تصر هذه السيدة على قراءتها ؟ !انصاعت للأمر بفضول..

اقتربت من الشرفة وتنفست الهواء العليل بعمق ، ولكن أزعجها ضجيج الازدحام في الأسفل ، دخلت الغرفة مجددًا وهي تبحث عن مقعد آخر غير مقاعد الشرفة الكبيرة ، ولمحت مقعداً أمام شيء مغطى وكأنه لوحة ، استوعبت الأمر فهذا مسند اللوحات وهذا المقعد يجلس عليه راكان ، تردد الاسم بصدى غريب تناغم مع دقات القلب التي وكأنها كانت تنتظر وقع لفظه على لسان سُكنان ، جلست على المقعد وفتحت حقيبة مذكراتها لتشهق بذهول:

وهتفت : هذه ليست مذكراتي !!!

وقع نظرها على كلمات بخط مُنَمَّق ومرتب ويبدو من صاحبه أنه منظم الفكر وواثق الخُطا ،تابعت القراءة وهي تريد اكتشاف ما يحدث.

الآن وأنتِ تقرئين كلماتي مثلما قرأتُ كلماتك بالسابق ، ماذا تشعرين ؟؟ هل جثا العشق على قلبكِ مثلي ؟

أحببتك وصدقيني لم أعرف منذ متى ، بأي صفحاتك ؟

لا أعرف.

وقد نسيتُ أنني ابتعدتُ طويلاً عن أساطير العشق ، لتأتي أنت بكلماتٍ أثرت فيّ عشقاً لا يقبل هزيمة الفراق ،فكيف إذ رأيتُكِ؟

فقلبي يرفض البعدُ ويؤلمني حد الاختناقُ.

فليأت الذي قال من كان بعيدًا عن العين بعيدًا عن القلوب!!

وأنت سُكنان قلبي ولم أرك ، فما الذي تملكني ،وقذفتِ قلبي بأي الدروب؟

أتيتُ إلى هنا وما كنت أعلم ما ينتظر قلبي وما الذي سيجْتَاحهُ، فإن كنتُ تعديت حدود المنطق ،فعقلي رأف بقلبي وعِشقكِ أصبح مباحاً ، فإني أعترف اليوم إني أحبكِ ، وقلبي العنيد أطلق اليوم سراحي.

سُكنان ... كنتُ أنطق اسمك مرارًا وكأني أقبّلُه .

عقلي جُنّ بكِ ،حتى أمر أناملي برسم وجهك كما تخيّله.

انظري إلى الصورة المغطاة في مَرْسَمِي ، متأكد أنها تشبهك لحد كبير، فأنا عاشق سُكنان ،والعاشق لا يخطئ ؛رفعت بصرها وهي تتنفس بشكل سريع ، ماهذا الذي يركض خلف قلبها الآن؟

نظرت جانباً للوحة المغطاة ، وبأنامل مرتعشة سحبت الغطاء بخفة ؛لتتسع حدقتاها بذهول ، هي!!!!!

نظرت لوجهها المرسوم على اللوحة بصدمة، بنسبة كبيرة هذه الفتاة تشبهها ، ووجه آخر لرجل شديد الوسامة.

نظرته العاشقة لها كانت تتحدث ، نظرة احتواء أكثر منها عشقاً.

استمر وَقْع المفاجأة يبدو جليًا على وجهها لعدة دقائق ،حتى أفاقت من سيْل أفكارها ونظرت للدفتر مجددًا ،وأكملت بأنفاس متسارعة ،لم أكن مخطئًا، فأستطيع أن أتخيل مدى دهشتكِ.

فتاة الورق يا حبيبتي.

نعم ، !الا تتعجبي ،فأنت حبيبتي.

لم أقابلك فقط هنا ،قابلتكِ مرارًا في خيالي ، أنت امرأة أحلامي ،وما العشق إلا عشق الروح ، أتعلمين حبيبتي ؟

منذ أن سكنتُ هنا وسكنت أنتِ بقلبي ، وسبحتُ بين كلماتك ،عانيت مثلك ولأجلك ،أصبحت جزءًا مني.

فى الصباح أستيقظ ودفترك فوق القلب يؤنسه ، بعد مرور سهرة المساء، معكِ أغفو ويسقط دفترك على صدري مطويًا صفحاته لصباح جديد أعيشه معكِ ، التف كل ألم جمعتيه بمذكراتك حولي ،هنا عانيت معك ،وهنا تألمت ، ومكان آخر ابتسمت ودعوت ، وفي النهاية تعلمت، تعلمت منكِ أشياءً كثيرة سُكنان ،تعلمت أن أصبر وأن أصرّ على الصدق ، تعلمت أن أقترب من خالقي رغم العصيان ،تعلمت أن لا أخشى من أخطائي ،تعلمت التسامح .

وفي النهاية تعلمت أن أحبك،،

نعم.. أحبك !

الفصل الحادي عشر

"اعتراف بالعشق"

حبيبتي الورقية:

أتشعرين بي ؟ فأنا رجل لا يفكر برجعية.

أحببتك وأنتِ خلف قضبان روحك وغير مرئية .

تسللت كلماتك إلى أعمق أعماق قلبي بأنغام رومانسية.

حتى بات لقاؤك هاجسي وتنشده روحي بوحشية.

كم أردتُ أن أحتوي آلامك وأهتفُ بحنيني وعشقي لقلبك بعلانية.

سأعترف أمام عينيك الحزينتين بأني أحبك تحت ضوء ليلةٍ قمرية، أعشقك يا فتاة الورق يا ازدواجية.

هل زادت خفقات قلبك قليلاً ؟

هل استطعت أن أرسل لك من أشواقي؟

وأنت تقرأين هذه الكلمات اسألي قلبك سؤالاً: من أنا بالنسبة لكِ؟

ترقرقت عيناها بعَبْرة لم تفهمها ،وقفلت دفتر المذكرات بحدة ،ونهضت.

هبطت للطابق الأرضي والتقت بوجه سوزانا المبتسم ،اقتربت سوزانا وهي تَرْمُقها بلهفة ،وقالت :

لو قلت لكِ أنني لا أعرف ما تحتويه هذه المذكرات ستصدقيني ؟

آومأت سُكنان رأسها بالإيجاب وقالت:

- نعم أصدقك.

اتسعت ابتسامة سوزانا وهي تقول بحماس :

يجب أن نذهب الآن إلى راكان في المعرض ،لابد أن تكوني معه ،هو يحتاجك كثيراً.

هربت سُكنان بعينيها ونظرت للأسفل وأجابت بنبرة متألمة :

- لا ،لن أذهب.

امتلأت عينا سوزانا بالدهشة وهتفت معترضة :

لم'؟!

أقسم لكِ أن أخي يحبكِ بل جُنّ بكِ ، فأنا أكثر شخص في العالم يعرفه ، لماذا لا تريدين أن تعطيه فرصة لمقابلتك والتحدث معكِ ؟

نطقت سُكنان بتعابير وجه تملؤها الحيرة ،وأضافت:

هل من المعقول أن يحبني ولم يرني مرة واحدة ؟

لن أصدق هذا... !!

ثم قالت بإيجاز وهي تريد أن تنهي هذا الحديث :

هل لي بالانصراف ؟

ظهر الحزن على وجه سوزانا وصاحت:

لن أمنعك ، ولكن كامرأة أقول لكِ هذا:

سيأتي وقت وستندمين على قرارك هذا ، أنتِ حتى لم تعطه فرصة وحيدة ، لن تقابلي كل يوم رجلاً يُحبك كهذا سُكنان ، هل تعلمين سبب الزحام بالخارج ؟

ردت سُكنان بالنفي : لا ،لا أعرف.

سوزانا بحزن: أخي جعل صورتك في العرض الأول لمعرضه،لوحة الافتتاح

ورفض بيعها معلناً امتلاكه لها وأنها ليست للبيع ، وأعلن للجميع أنها لحبيبته التي يبحث عنها ،والتقاها في هذا المكان ،ولم يفصح عن أي شي ء أكثر من ذلك ، لذلك أتى معجبوه من كل العالم ورجال الصحافة إلى هنا ، للمكان الذي التقى به رسامهم المفضل بحبيبته المفقودة ، وتابعت بانفعال وبكاء : أخي ينتظرك منذ أول يوم في معرضه.

كان يأمل أن تقرئي هذا الخبر في الجريدة أو أنكِ تأتي إلى هنا مثل ما أتيتِ اليوم ، تبقى يومان فقط على إنهاء العرض.

وامتزجت نبرتها المنفعلة برجاء:

أرجوكِ لا تخذليه.

لم تستطع سُكنان كبح دموعها ،سقطت بغزارة على خديها وهي تركض للخارج.

عادت إلى الفندق ومعها دفتر المذكرات الخاص به ، ودخلت غرفتها وهي تبكي ،اقتربت من الهاتف ، واتصلت بطبيبتها النفسية حتى تأتي لها في الفندق بأمر مهم وأخبرتها العنوان ، وأتت الطبيبة التي أصبحت صديقتها ، وروت لها سُكنان كل شيء.

ابتسمت الطبيبة بسعادة ،وهتفت غير مصدقة:

يا إلهي ،هل أنتِ حبيبة راكان ؟؟ رااائع

سُكنان بدهشة من ردة فعل الطبيبة :

رائع !!! هل الشفقة على حالتي شيء رائع ؟

أَجْفَلت الطبيبة من قولها وأجابت :

شفقة ! ما خطبكِ سُكنان ، أي شفقة تتحدثين عنها!

فكل شيء مررتِ به هو فخرٌ لكِ إنك واجهتيه وقاومت وشُفيتِ بمفردك، أي شفقة وأنتِ أثبت شجاعتك وإرادتك لكي تعودي لنفسك ، من منا لم يضعف ؟ من منا مستقر نفسياً بشكل كامل ؟

ولو كنتِ تتحدثين عن الانفصام ،فكلنا منفصمون بدرجاتٍ متفاوتة، نحارب أنفسنا طيلة الوقت ، هذه حربٌ أبدية ستظل بداخلنا سُكنان.
هزت رأسها وهي تبكي ،وقالت:

- لا أعرف ، ولكن هناك شيء يُخيفني منذ علمت بهذا الأمر.

ربتت الطبيبة على كتفها وقالت بلطف :

أنتِ شُفيتِ سُكنان ولكن أنتِ اعتبرت الحب ضعفاً، وأنت عانيت سابقاً من هذا الضعف ، فهذا السبب الوحيد لخوفك ،وما تدري ، لعل هذه إحدى دعواتك الباكية في أكثر لحظات ضعفك ؛ لترتفع ويتقبلها ربّ السماء لتهبط وهي مختومة بختم وبشر الصابرين.

لمَ لمْ تفكري هكذا ؟ ألم يرق قلبك لهذا العاشق المجهول ؟

نظرت سُكان شاردة في الفراغ وقد لامست كلمات الطبيبة قلبها بقوة ، ولا تريد أن تنكر أن كلماته أصابت قلبها في الصميم بشكل جعلها تخاف هكذا.

فهمت الطبيبة ما تفكر فيه سُكنان وابتسمت بمكر.

أخرجت من حقيبتها قلماً وورقة ، وقالت:

لحسن الحظ أنني دُعيت إلى هذا المعرض منذ يومين من قبل أحد الأصدقاء ، سأكتب العنوان بالتفصيل . وبعد دقيقة وضعت الطبيبة الورقة بجانب سُكنان وهي تقول:

لو كنتِ معي منذ يومين ورأيتهِ ونظره متعلقاً على باب الدخول ،لكان تغيّر موقفك هذا ، إنه ينتظرك سُكنان.

زادت الحَيْرة على وجه سُكنان وقالت بتساؤل :

- هل قرأت الصحف ،ماذا قال عني ؟

أجابت الطبيبة بضحكة ونفي :

حبيبتي أنا لا أحب قراءة الصحف ،ولكن سمعت قصته وأنا في المعرض منذ يومين ، ولم يخطر ببالي أنه يقصدك ،وإلا كنت أتيت إليكِ راكضة ، سمعت أنه التقى بفتاة وهو في عطلته الأخيرة ويبحث عنها ، حتى اللوحة التي رسمها خصيصاً لكِ نقلها من مكانها لأحد الزوايا الخاصة بسبب تجمهر الصحفيين أمامها وأسئلتهم المملة.

لذلك لم أشاهد اللوحة أيضاً للأسف ، القدر رتب كل شيء سُكنان.

كان يجب أن تذهبي بنفسك إلى المنزل؛ لتكتشفي كل شيء .

وأكملت الطبيبة حديثها بقول :

دعي هذه المسألة للقلب سُكنان ، فلقلبكِ عليكِ حق، ثم ودعتها الطبيبة وانصرفت.

استمرت في حيرتها حتى أتى وقت قيام الليل ؛ لتنهض من فراشها وتوضأت ، وذهبت بين يدي الله ، صلت بعد القيام ركعتي استخارة من هذه الحَيْرة حتى أذان الفجر، وأدت فرضها وقامت لتستلقي على الفراش مجدداً وتتقلب ،والفكر يضج برأسها ،أوقات كثيرة كانت تبتسم ،ابتسامة

منبعثة من جفون القلب ، وتذكرت أنها لم تكمل مذكراتها فبالتأكيد تملّكه الفضول لمعرفة ما حدث بعد ذلك ،وكانت كالتالي:

"تفاجأت أن الطارق هي الطبيبة ومعها صديقتها الخائنة بوجه يعتصر ندماً ،ونفس النظرة التي كانت بعين سُكنان من قبل ،نظرة منكسرة حزينة، ضائعة . أتت صديقتها لتطلب منها السماح بعد أن تم فضح أمرها بعد أن حاولت أن تجهض الطفل ، ولكن كادت أن تموت وانتقلت للمستشفى ،وعلم أحدهم بالخبر وذاع صيتها، وتوسلت لسُكنان أن تسامحها ،فخالد من أجبرها على فعل ذلك حتى يتزوجها .

أجابتها سُكنان وقالت:

سبحانك ربي ،أنت العدل ،المنتقم الجبار ، تطلبين مني السماح لأنكِ كنتِ مجبرة ، ولكن هل أجبرك أحد على خيانتي منذ البداية ، إنني شُفيت نعم ، ولكن لستُ بهذه الملائكية لأسامحك وأنت طاعنة في شرفي، اذهبي ، إن استطعتُ يوماً أن أسامحك سأسامحك"

تذكرت ذلك اليوم الآن.

وحمدت ربها أنها قاومت ولم تفعل مثلها ، وانتقام الله أعظم بكثير ،يكفي نظرتها المنكسرة القاتلة بحزن من حديثي ؛ لذلك لم تكتب هذا المشهد الأخير لها ، لم ترد أن تختم معاناتها بوجود هذه الخائنة ، وأَبَتْ أن تكون هذه الخاتمة ،وتفهمت سبب مجيء الطبيبة معها وذلك بعد إلحاح منها على الطبيبة بعد مجيئها للمستشفى .

قضت اليوم التالي في نفس الحيرة وقلبها يدفعها بقوة للذهاب ،حتى جاء آخر أيام المعرض ،جهزت نفسها استعداداً للرحيل ، وقلبها يمنعها... لا تذهبي

كان قد اقترب المساء ، أنهت حساب الفندق ، واستقلت سيارة أجرة حتى تذهب لمحطة القطار.

في الطريق شردت بتيهة في هتاف قلبها والتزام خطا العقل حتى يهتف القلب من جديد.

"بين كل خطوة سير ،اتأرجح أنا على ضفاف حيرتي ، ضائعة بين التراجع والإقدام ، لا اكاد اتراجع حتي يصرخ قلبي توقفي ، دعيني اتنفس قليلاً يا قاسية النفس ،دعيني ودعِ العشق يغزوكِ ،ارجوكِ فأنا قلبك المُعذّب ،استطيع أن أشعر من الصادق ومن يستحق أن يُكذّب، واسير إليه وقلبي يركض أمامي ليراه ،لرجلاً أصبحتُ أنا دون علمي سُكناه ،اعشقاً هذا أم ماذا دهاه ،لا انكر إنه خطفني ،خطف أنفاسي مني.. سحرني جعلني أعترف إني احببته وأسرني ، فأنا الآن أريد أن أراه"

وقف السائق بقرب المحطة ،ولم يحرك ساكناً ،قال بتعجب :

- سيدتي! هذه المحطة.

هتفت بألم : لا ،ليست هذه المحطة الأخيرة ، أرجوك... عُد بي.

السائق باستغراب وتساؤل: إلى أين ؟

تجمهر الجمهور أمام المعرض جعل الطريق مزدحماً بشكل عَطَّل حركة السير لمسافة طويلة في الطريق ، تحرك والألم يملأ قلبه إلى صورتها ، وقال بتنهيدة عميقة:

أشعر بكِ قربي ،ولكن لم أشاهد وجهك إلى الآن ، لا تجعليني أنتظر أكثر من ذلك رفقاً بي.

وقف سائق التاكسي وقال بضيق:

هذا الازدحام بسبب معرض الرسم ، منذ بدأ والطريق هكذا بسبب الزوار.

خرجت سُكنان مسرعة وقالت له:

- انتظرني أرجوك.

رد السائق باعتراض وقال: لا أستطيع.

أعطته أجرته وركضت إلى المعرض ، وكرهت غباءها، إنها لم تأت أبكر من ذلك. وصلت حتى بوابة المعرض ،دلفت إلى الداخل بنبضات متسارعة ،وكأنها تعرف هذا الرجل منذ سنوات ، وكأن بينهم قصة عشق قديمة لم ينهها الزمن.

أمعن النظر بصورتها وقال برجاء: أين أنتِ ؟

بعد أن أشار لها أحد الزوار بمكانه ،وقفت خلفه وسمعت قوله ، أحدثت هذه الكلمات زلزلة بداخلها ،وقالت بدون أن تشعر: جئتُ.

التفت بذهول ودق قلبه يتسارع بجنون ، حتى اضطربت ونظرا لبعضهما طويلاً نظرة صنعت قصة عشق لاثنين يعرفان بعضهماالآن ، ونظرته كانت دافئة ومحببة بطريقة جعلتها ترتجف ،وبلعت ريقها بتوتر، قال هو بمكر:

من أنتِ؟

تبلدت تعبيرات وجهها وشعرت بألم ، كيف رسمها ولم يعرفها ، استدارت لترحل وقلبها يضخ ألماً، وسقطت عبرات حزينة من عينيها ؛ لتتسمر مكانها عندما قال بنبرة عاشق يعترف:

سُكنان ، حبيبتي.

لتغلق جفن عينيها بقوة ،والتفتت لتراه يتكئ على أحد قدميه على الارض، ويمد يده بخاتم الخطبة وقال بقوة :ولم يَعِر لمن تجمهروا حولهم يرون المشهد الرومانسي أي انتباه ، وقال بنظرة ضمتها:

هل تتزوجيني؟ أعشقك سُكنان ،أعشقك .

سكنان أم أنتِ في القلب سكناكِ ،

ياقلبى العاشق كم أعشقك يا فتاتي.

أترحبي بقلب رجل أصبح حتى في خياله يرعاكِ

أحبيني ،فإني جعلت حتى العشق يهواكِ

سكنان أم انتِ في القلب سكناكِ

علا صوت دقات قلبها عن الهتاف الحاد للجمهور ، وزادت دموعها، بقلب يتراقص فرحا ونظرة عينيه من جعلتها كذلك ، كان ينتظر ردها بشوق ، وقالت أخيراً بقلب سبق واعترف:

- موافقة.

صاح الحشد أكثر بسعادة ، ونهض واقترب منها وقال:

ما ردك على سؤالي ؟ من أنا بالنسبة لكِ؟

ابتسمت بسعادة وقالت: دعوة في أوْج ضعفي، سقطت بدموع من عيني أثناء السجود لرب السماء وأُسْتُجِيَب

الفصل الثاني عشر...

"عقد قران"

استمرت النظرات مُصَوَّبة على الثنائي العاشق حتى أخذها إلى غرفة جانبية بها مكتب خاص به للانفراد ،كانت أوصالها تنتفض خجلاً وأوتار القلب تعزف مقطوعة بدء أول ليالي العشق الأسطوري.

"في الغرفة"

ثبّت نظرته عليها بعدم تصديق وقال بنبرة مفعمة بالحنان والحب:

"لم أتخيل يوماً أنني سأنظر لامرأة هكذا"!

ابتعدت قليلاً ثم جلست على مقعد قريب أمام المكتب،في قرارة نفسها تعلم أنها لن تستطيع الوقوف أكثر من ذلك، فالتوتر والخجل يغمرانها بعنف ،لا تريد أن تظهر بهذا الضعف ، تماسكت وقالت وهي تفكر بجوابه:

- ألم تحب من قبل ؟ !

اقترب من مقعدها وجلس قُبَالتها وهو يبتسم ، ثم ردّ بتأكيد صريح:

"لم يكن حباً على الإطلاق سكنان ، لم أقابل امرأة جعلتني أفكر وأشعر بنفس القوة، لم أقابل امرأة جعلت دقات قلبي تشارك رفة عينيها بأنغام رومانسية من كلمة واحدة" أحبك "

اشتدّ احمرار وجنتيها بقوة وظهر الخجل على وجهها بشكل جعل ابتسامته تزداد اتساعاً ، ثم قال بلطف:

"لم أطلب الكلمة التي أتمنى أن أسمعها الآن.. سأنتظر.

وسأجعلك تقولينها من تلقاء نفسك"

سيْل السعادة بداخلها جعلها تبتسم لا إرادياً ، رفعت عينيها إلى وجهه وأجابته بصمت ، بنظرة محبة أذابت آخر حصون المقاومة بداخله، هتف بتصميم :

"سنتزوج قريباً ، لن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك"

بلعت ريقها من المفاجأة وقالت بتلعثم :

"لم تنتظرني كثيراً ، فكل ما حدث كان خلال شهرين" !

طوَّق وجهها بنظرة عينيه المليئة بالدفء ،وقال بصوت رجولي عميق:

"انتظرتك طويلاً سكنان ، أنا أنتظرك منذ سنوات لا أستطيع الانتظار أكثر ، فأنا أحتاج إليك جانبي"

وشدد بنبرته المؤكدة وتابع:

"أحتاجك بجانبي حبيبتي... كثيراً"

مع هذه النظرة لم تستطع الاعتراض ، ابتسمت بخجل ونظرت للأسفل وتلقى إجابتها بالموافقة.

طافت الابتسامة على تقاسيم وجهه بعشق وقال بسعادة وهو ينظر لأناقة حجابها الوردي الرقيق:

"الحجاب رائع عليكِ ،ولكنك لم تذكريه أبداً في مذكراتك "

أجابته وهي تبتسم ثم قالت :

"ذهبت لرحلة عمرة مؤخراً ،وعدت وأنا محجبة"

رقت نظرة عينيه أكثر وردد هامساً بإعجاب شديد:

"إنه رائع عليكِ ، يزين ابتسامتك الجميلة التي تسهم القلوب ، أنتِ أروع من جميع تخيلاتي"

وتابع عندما لاحظ ظهور الخجل واحمرار وجهها بشدة وقال:

"آسف ، لم أستطع كبح مشاعري ، سأنتظر عدة أيام وبعدها سأعترف بكل شيء بداخلي "

نظرت بقلق ورددت:

"عدة أيام.. فقط" !

أطرفت عيناه بتأكيد وقال بقوة وبنظرة عميقة:

"لن أستطيع الانتظار أكثر"

تدرجت الابتسامة الخجولة على وجهها ،وتدرج العشق إليها في الأيام التابعة لذلك اليوم الذي لن تنساه مهما مضت في العمر، كانت تبتسم

بسعادة كلما تذكرت أنها رُزِقت برجل مثل راكان ، كانت قصة عشقهم سريعة ولكن صادقة.

أحب روحها قبل أن يراها وهي كذلك، ولكن هناك بقعة ما بداخلها تقاوم وهذا ما جعلها بقلق مستمر هذه الأيام.

هناك في البعيد وراء قضبان حديدية ، ليست نفسية إنما حقيقية، وقف "خالد "خلفها وفي الجهة المقابلة أخاه الأصغر" نادر "، يتبادلان أطراف الحديث ، ثم تلقى خالد الخبر الذي جعل مُقْلتيه تَقْدح شرراً وحقداً.

أخبره أخوه الأصغر بقرب زواج سكنان الذي تناولته الصحف في الأيام الماضية بشيء خرافي وكأنها الفقيرة التي ستتزوج الأمير ، زمّ خالد شفتيه بتوعد غاشم وحاقد عندما تابع هذا الخبر بخبر آخر. وهو استلامها كافة ممتلكاتها وذلك لعدم أمانة الوَصِيّ عليها وهذا الشيء الذي أخلّ بشرط الوصية ودحض بنودها.

طرق خالد على القضبان بغضب عنيف وقال بشرّ :

"لن أتركها تتزوج أبداً طالما بي نفس ، ليس بهذه السهولة"

وجّه" أخوه "نظرة ماكرة وبادله خالد بنفس النظرة ، وقال هامساً وهو يلتفت ويترقّب من حوله:

"استمع لحديثي الآن ونفذه بالحرف الواحد"

أجابه نادر بنظرة خبيثة وقال ببسمة شريرة:

"سأنفذ كل شيء تقوله يا أخي ،طالما ستعود لنا هذه الثروة"

بين شواطئ السعادة تسير ، وتشير بأناملها إلى أمواج الأمل ، وتهتف بسعادة هذه الفرحة تنتظرني ؛ لتغمرني إلى عنقي بين نسائمها بين ترانيمها الرائعة.

أتى اليوم المنتظر ،يوم عقد القران الذي تحدد موعده قبل حفلة الزفاف بيوم أتت "الطبيبة" بسعادة غامرة إلى منزل سكنان، وضمتها كعادتها بقوة مما جعل الطمأنينة تعود لسكنان مرة أخرى وسط هذا القلق الغامض ، ولاحظت" الطبيبة "ذلك وتحدثت بمحبة ولطف حتى طغى الارتياح فوق براكين التوتر بداخل" سكنان "

وأتى المساء مع وجود الأقارب "لراكان "، واليوم تعاقبت أوجه سكنان ولكن أوجه السعادة إلى وجه أكثر سعادة وخصوصاً وهي توقع على عقد زواجها مع هُتَاف من حولها بفرحة.

ضمتها" سوزانا" بقوة وضحكة عالية وجذبتها إلى والديها في غرفة بالمنزل رحَّبت بهما "سكنان" مرة أخرى ولكن هذه المرة جلست، وتحدثت معهما وسلمت قلبها لهما فهما رائعان مثل أبنائهما.

أهدتها والدة راكان طقماً من الألماس مكوناً من "عُقد وسوار رائع"

نظرت لها بحب وقالت:

"هذا أقل بكثير من حقك يا" سكنان "، وجودك بحياة" راكان."ابني، أعدم يأسي من وحدته وعناده بعدم الزواج، هذا شيء بسيط ، إنما أكبر شيء أستطيع أن أقدمه لكِ ، أنني سأضعك بمكانة" سوزانا "ابنتي ، ستكونين في قلبي مثلها ،هل يسعدك ذلك ؟

ارتمت سكنان بين ذراعيها وأدمعت وهي تقول بألم:

"يسعدني ذلك أمي، لفترة طويلة لم أنطق كلمة" أمي"

رَبَتَت الأم على رأس" سكنان "بابتسامة حنونة ، وقالت لزوجها المبتسم بصدق:

"وأنت أيها العجوز ماذا ستقدم لابنتك في عُرْسها"

اقترب فخر الدين) والد راكان (منهما وابتعدت سكنان قليلاً وبادلته ابتسامته المحبة بمثلها وقال هو :

"الآن أنا والدك"

وسكن وجهها بين يديه وقبّل رأسها بحنان أبوي وقال بفخر :

"مبارك لكِ يا ابنتي ،صدقيني ، صدقي رجلاً ملأ الشيب رأسه ، فأنت مع" راكان "في أيدٍ أمينة ،"فهذا الشبل من ذاك الأسد" ، وأشار لنفسه وهو يبتسم ابتسامة واسعة مرحة.

اقتحم راكان جلستهم بوجهه المبتسم ابتسامة واسعة وقال بمرح:

"هل تتآمرون ضدي ؟" !

ألقى عليه والده نظرة واسعة مختلطة بالمرح وأجابه:

"شيء من هذا القبيل "

ووجّه حديثه لسكنان مرة أخرى:

"هدية عُرْسك ستصلك بعد عودتك من شهر العسل"

أتت سوزانا بابتسامة ماكرة وهتفت:

"أوه؛ يا إلهي ،هذا عقد قرانهما ! ألن تتركاهما بمفردهما ولو لدقائق؟"

جذبت والديها بمرح وضحكة عالية بعيداً وتركت شقيقها مع عروسه بمفردهما، وكاد أن يتحدث حتى اشتعل وجهها بحمرة الخجل، قالت بِتَلَعْثُم وهي تركض :

"انتظر قليلاً . سأعود بعد دقائق"

خرجت من الغرفة وركضت إلى غرفتها بالطابق الثاني من منزلها ، ثم دخلت غرفتها وهي تلهث، جلست على فراشها تكتم ضحكتها من تصرفها الطفولي.

في أول ثوانٍ ضاق من هروبها ، ولكن ابتسم بالتدريج وهو يتذكر مدى خجلها وحيائها ،نظرَ بتحدي وقال:

"سأنتظرك مهما طال الانتظار "

وقفتْ أمام" المرآة "وتأكدت أن مظهرها لا تشوبه شائبة ، وقررت أن تذهب له مرة أخرى ، اقتربت من الباب لتفتحه ولامست أناملها المقبض حتى انطفأت الإضاءة فجأة ، ارتعش جسدها من الظلام المفاجئ، وحركت المقبض وهي تنتفض ،فهي تخاف من الظلام منذ الصغر، ولسوء الحظ أن غرفتها بعيدة عن مَوْطِن السُّلم المؤدي للأسفل، والظلام يَعُم الأرجاء ،بلعت ريقها بخوف وتحركت خطوة واحدة تبعتها خطوة أخرى حتى كادت أن تتعثر بزهرية على طاولة صغيرة جانبية، ولكن

أسندتها بيدها ، لم تشعر إلا بتلك الدمعة المرتعبة التي حرقت خدها، ومن الرعب لم تستطع أن ترفع صوتها الذي يخنقه الخوف والأصوات بالطابق الأسفل تبدو بعيدة.

سمعت خطوات تقترب ،وتقترب ،وتقترب ، حتى أَلَجْمَها الرعب ووضعت يدها على فمها تبكي ؛ أشعل قداحته لتنير هذه الظلمة ولو قليلاً ، ورآها وهي تبكي ،صاح بقلق:

"أنا" ....راكان "حبيبتي ،لا تخافي ،إنه ا...

لم يكد يكمل جملته حتى ركضت إليه وارتمت بين ذراعيه وهي ترتعش وتبكي قالت وهي تشهق من البكاء والخوف :

"حمداً لله أنك أتيت ، كنت خائفة كثيراً" راكان "، أرجوك لا تتركني مجدداً"

أغلق غطاء قداحته المعدنية وهو يبتسم عشقاً ،ثم قال بهمس حنون:

"أنتِ من تركتني ، ولكن أعدك أنني لن أتركك أبداً حتى وإن تركتيني أنتِ ، ألم يكن هذا الموقف أقرب مثال لذلك "

طوَّقها بذراعيه بقوة وحنان حتى هدأ ارتجافها ،قالت هي بصوت هامس وناعم:

"لن أتركك أبداً ، أعدك "

مسّد على رأسها المحجب ، حتى كادت أن تغفو، ارتاح أكثر لأنها الآن وبعد عقد القران أصبحت زوجته ،تمنى أن يستمر هكذا لوقت أطول

ولكن أتت الإضاءة فجأة، وأزعجت هدوء الموقف بسبب صوت المسجل العالي الذي عاد بأنغامه الصاخبة ،فتّحت عينيها بالتدريج ورأسها ساكن على كتفه، وبلعت ريقها بخجل ثم ابتعدت وهي تنظر للأسفل ، وقالت بِتَلَعْثُم:

"كنت خائفة و"...

اتسعت ابتسامته عشق ودفء ثم أجابها:

"و إنك زوجتي الآن ، وحفل الزفاف غداً بإذن الله"

الفصل الثالث عشر

"رحلة عذاب أخرى"

في رُوَاق الليل كانت تضم وسادتها مبتسمة كلما تذكرت خوفه عليها عندما انقطعت الإضاءة فجأة ،وتذكرت نظرته قبل الذهاب، نظرة حنان وعشق ووعد بأن الغد سيكون بداية السعادة الحقيقية،اتسعت ابتسامتها بفرحة كلما تذكرت أن عائلته تركوه وفضّلوا أن يمكثوا معها هذه الليلة گوالديها الذين فقدتهما وعزم والد" راكان "أن يسلمها لزوجها كأبيها هي أيضاً.

"فغداً حفلة الزفاف"

تنهدت بعمق وابتسامة ،ثم أغلقت جفنيها لتسيطر على هذه الصحوة وتخلد للنوم.

ابتسمت الشمس بعد عدة ساعات، وبعثت خطاب الضوء الصباحي المشرق لترد لها سكنان الابتسامة بتثاؤب ، نهضت لتستعد وتذهب إلى صالون التجميل الذي كان اختيار" سوزانا..... "

"بعد نصف ساعة " كانت انتهت من ارتداء ملابسها حتى دَلَفت صديقتها الطبيبة بابتسامة واسعة وهتفت بسعادة :

"صباح الخير على أجمل فتاة ستصبح اليوم سندريلا بجانب زوجها الأمير" راكان "

اتجهت إليها سُكنان وضمتها بقوة وقالت بسعادة :

"صباح الخير على أروع طبيبة وصديقة" فاطمة "

عانقتها فاطمة بمحبة ،ثم ابتعدت وقالت بضحكة جميلة :

"هيَّا حتى تتناولي فطورك ونذهب للصالون ،"راكان "هنا منذ ساعة تقريباً وينتظرك

دق قلب" سُكنان "بقوة وكررت اسمه بهمس" راكان "

ضحكت فاطمة ضحكة عالية ،ثم جذبتها للأسفل ، احتجت سُكنان وعادت ثم أخذت حقيبتها التي أعدّت بها كل ما ستحتاجه.

كان يقف بعيداً مع شقيقته يتحدثان بمزاح حتى وَقَع نظره عليها وهي تنزل على درجات السّلم ،وكل خطوة تقربها منه أكثر ، نظراتهم متشابكة في حرب غرامية سلاحها المحبة ، وأرضها القلب .، تجمعوا حول مائدة الإفطار ولم يشح نظره عنها مما جعلها تلتفت بحرج حولها ، ووجهها يشتعل احمراراً من الحياء.

أخذها راكان بعد الإفطار للصالون وذهبت معها فاطمة وسوزانا ، لم يأخذ الطريق ساعة من الزمن حتى وصلوا أمام صالون التجميل ،وعانقها بنظرة عينيه العاشقة الحنونة ، ثم ذهب لينهي آخر ترتيبات حفل عُرْسه في قاعة الفندق ..

عدى النهار في تجهيز سكنان حتى وقفت أمام المرآة بعد الانتهاء بشكل كامل ، لامست أناملها التاج الرائع فوق" طرحة "رأسها ،والحجاب الملفوف برقة حول رقبتها ، ابتسمت بفرحة لنفسها ،لتراقبها نظرات

سوزانا وفاطمة بنفس سيْل الفرحة لهذه الفتاة التي عانت حتى استكانت بين عينّي السعادة ،وعقّبتا على مظهرها بكلمات المدح والإطراء، ثم اقتربت" سوزانا "منها ووضعت يدها على كتفها وقالت ببسمة لطيفة :

"مبارك لكِ حياتك الجديدة سكنان ، سأتولى اليوم أمر النصح ،تشبثي باتزان حياتك ، لا تثوري دائماً ، فالحياة أبسط من ذلك ،كل ما عليكِ هو أن تحبيه دائماً فأنا أعرف أخي جيداً ، لا تشعريه أبداً بالإهمال "

هزت سكنان رأسها ببسمة وقالت:

"سأبدأ بهذه النصائح حياتي ، أعدك بذلك سوزانا"

شعرت فاطمة باهتزاز حقيبة" سوزانا "الملقاه بجانبها ، قالت منبهة::

"يبدو أن هاتفك به اتصال سوزانا."

اتجهت سوزانا للحقيبة وهي تقول متسائلة :

"هل هذا عامر زوجي؟ دقيقة سأكتشف"

أخرجت الهاتف وابتسمت وهي تجيب على الاتصال :

"عامر أين أنت؟"

قَهْقَه عامر وغمز" لراكان "وهما متوجهان للسيارة بالخارج بعد الانتهاء من تجهيز ترتيبات حفل الزفاف الذي ينتظر العروس فقط ،وقال بصياح :

"حتى اليوم تسألين أين أنت !! بعد قليل سوف نكون أمامكنّ"

ضحك راكان وقال متعمداً علو صوته :

"هيا ياصديقي فزوجتك ثرثارة "

ضحك عامر أكثر وقال بعجالة :

"سنلتقي بعد قليل سوزانا.. إلى اللقاء"

وأغلق الهاتف سريًعا ؛شهقت سوزانا من الغيظ وقالت لسكنان بتَذَمُر :

"انسي ما قلته للتو ، عنفيه دائما فهو يستحق هذا"

وجلست وهي تمط شفتيها بضيق وغيظ ، مما أثار ضحك سكنان وفاطمة من تصرفها الطفولي هذا ، ثم عادت سكنان تنظر لوجهها عبر المرآة وتبتسم.

أوقف عامر راكان وقال باعتراض :

"قف أيها البطل ، هل تتذكر وعدك الذي حنثته ؟ "

ابتسم راكان وضرب على كتف عامر بمزاح

"أتذكر جيداً ، ماذا تريد أيها المشاكس ؟"

كاد أن يرد ولكن قاطعه أحد عمال الفندق يطلب استشارته في بعض الأشياء الخاصة بالحفل.

أجاب عامر :

"سأبقى هنا راكان ،لا عليك ،اذهب أنت لعروسك"

رد عليه راكان ببسمة امتنان وهو يدخل سيارته المزينة بفخامة ثم ذهب..

انتظرْت حتى بات الانتظار مزعجاً، ظهرت تقطيبة على وجهها بتساؤل ولسان حالها يردد سؤالاً واحداً" : لماذا تأخر لهذا الحد ؟"

شاركها كلٌّ من سوزانا وفاطمة هذه الحيْرة ، نهضت" سكنان "من مقعدها بدقة قلب عنيفة ومخيفة ، حتى أتى اتصال هاتفي "لسوزانا"، ارتعب قلب سكنان خوفاً وشعرت بشيء حدث ، ووَالَتْهم ظهرها ونظرت للمرآة برعب ، حتى ردت" سوزانا "على الاتصال بنبرة قلقة وتبعها صرخة ،لا إرادياً تسرب الدمع من عين" سكنان "الذي أذاب كحل عينيها وعكر بشرتها الصافية مثلما عكر ظلام الألم فرحتها.

"في المستشفى "

أمام غرفة العمليات بالتحديد ، نظرتها متوقفة ومثبتة على الفراغ ، ولم يترك الحزن أي بوادر للحياة على وجهها الشاحب وعينيها اللتين بلون الدماء ، خرج الطبيب وهو يزيل كمامة طبية عن فمه وقال :

"إذا تخطى الساعات القادمة سيكون بخير بعد ذلك"

هتف عامر بحزن بعد أن أنهى للتو التحقيق مع الشرطة بسبب الحادث:

"ماذا حدث له ؟ ما به؟"

أجاب الطبيب بتقطيبة على جبينه :

"أصيب في رأسه بضربة عنيفة وكسر في أحد قدميه "

صاحت" سوزانا" ببكاء :

"مابه أخي ،قل لي أنه سيكون بخير "

سقط رأس والدة راكان على كتف زوجها وضمها هو ،وبكى أيضاً ثم قال بنبرة مرتعشة حزينة :

"هل حالته خطرة ؟"

أومأ الطبيب برأسه بالإيجاب وقال بأسف :

"يحتاج دعواتكم الآن"

تعالى بكاء الجميع إلا هي ، استمرت على تيهانها وقسوة الألم الصامت، ملقاة من أعلى قمم السعادة في غيابات الحزن.

خلال اليومين الذين أعقبا ذلك اليوم لم تسجد إلا وهي تبكي وتتوسل إلى الله كي ينجيه ، حتى استفاق.

اكتشفت إحدى الممرضات ذلك وهتفت لتخبر الجميع ،ركضوا جميعهم إليه ، أما هي كانت بين يدي الله في غرفة بالجوار ؛ خرجت لتتلقى النبأ من الممرضة ،ركضت لغرفته وكادت أن تلقي بنفسها على صدره وتبكي ولكن الصدمة جمدتها كالثلج.

صاح تردد صدى جملته داخل عقلها وقلبها بعنف وهو يقول عندما همست والدته لابنتها" سوزانا "أن تُسرع لتخبر سكنان.

قال بِتِيه:

"من ؟ لا أتذكر ، لا أتذكر أي شيء... من أنتم؟" !!

كان ينظر باتجاه آخر غير اتجاهها لذلك لم يرها وهي تدلف إلى الغرفة، وأعجزه لفافة رأسه بسبب الحادث عن سهولة الحركة ؛صُدِم الجميع !!

وهي ابتعدت ،رجعت بخطواتها للخلف حتى خرجت من الغرفة تماماً، اصطدم ظهرها بالحائط ونزفت عيناها بكاءً حارقاً.

"بعد عدة أيام"

تنفست فيهم كل دقيقة الألم ، كانت تنظر له من بعيد وتطمئن ، لم تستطع الاقتراب وهي الآن أبعد ما يكون عن قلبه ، حتى وافق الطبيب على رجوعه المنزل وذلك بعد استقرار حالته ، ولكن ساءت حالته النفسية بسبب فقدان الذاكرة ، هي الآن زوجته ولكن هو لا يدرك ولا يتذكر ذلك ، فضلت الابتعاد رغم اعتراض والديه ، وكانت لها حسابات أخرى طاقة القوة بداخلها تقل كلما رأته كذلك ، حاولت أن تجمع شتات نفسها ثم تفكر بطريقة تكون فيها بجانبه ، مر يومان فقط وقررت الذهاب.

تساءلت صديقتها فاطمة" الطبيبة "التي رافقتها في هذه الأيام و أبت أن تتركها:

"ما هو قرارك ؟"

أجابت سكنان بعزم وتصميم :

" لن أتركه أبداً ، سأقف بجانبه في محنته ولن أتركه فريسة سهلة للمرض ، هذا زوجي.. وحبيبي "

وافقتها الطبيبة بقوة وألقت على مسامعها كلمات الحماس والإقدام ،ثم ذهبت" سكنان "لقصره ، وتوقفت أمام البوابة الخارجية بشرود ،بلعت ريقها بحزن ، ثم دلفت للداخل ؛ رحب بها الجميع ولكن اندهشوا من طلبها رؤيته ،قالت سوزانا بتوتر:

"لم يتذكر أحد على الإطلاق ، ولم يذكر أحد أمامه أمر زواجه إلى الآن، منعزل على نفسه ولا يريد رؤية أحد ."

نظرت سكنان بقوة وأجابت:

"لم آتي إلى هنا كزوجة فقط"

تحدثت الأم بتعجب وألم :

"لم أفهم يا ابنتي ،نحن نريدك هنا ولكن هل ستتحملين غضبه وعصبيته في هذه الفترة ؟"

ردت سكنان بهدوء :

"أتيت كممرضة ولكن بقلب الزوجة المحبة "

وتساءلت :

"أين غرفته ؟"

أشارت لها سوزانا وقالت :

"بالطابق الثاني باتجاه اليمين"

اتجهت مباشرة إلى الطابق الثاني ،ونظرت باتجاه اليمين لترى باب الغرفة الذي يبدو أنها الغرفة المقصودة ، اقتربت حتى وقفت أمام الباب بأنفاس متلاحقة ،ثم فتحت الباب ؛لتفتح طريق بداية رحلة مؤلمة جديدة ولكن بدعائها وعزمها ستجتاز الصعب.....

"وبدأت رحلتها الثانية"

تتباطأ خطا الأقدام كآخر رفة رمش العين في جفون الحياة ،أسير ونظرة عيني مُصَوبة تجاهه الممدد على فراشه والتائه في غفوته كالمغشي عليه ،وعلو دقات قلبي تتناسب عكسياً مع خطاي ، حتى جعلت أنفاسي متضاربة وكأني أركض من مسافة طويلة ،ثم اقتربتُ منه ونظرتي متوترة ومنتشرة مع كل تقاسيم وجهه بحب ، صرخ القلب حتى التقط الألم صداه وجاء ، وشاء المكوث بداخلي بعد أن طردته مسبقاً وانتصرت..

جلستُ على أطراف الفراش بجانبه ومررتُ يدي بين خصلات شعره المبعثرة بنعومة ،المتمردة خارج طوق اللفافة البيضاء، لأول مرة أتلفظ باسم شخص ويرتجف قلبي له بحنين هكذا ،لأول مرة تمتزج آهة مفعمة بحنان وتخرج من بين موجات صوتي بنعومة ورقة هكذا..

آهة تحررت من دقات القلب لتلتقط أنفاسها وتحيا ،تبعها اسمه بصوتي الهامس".. راكان "

تململ في فراشه ولكن لم يستطع الحركة بسبب قدمه المكسورة الملفوفة ب"الجبس "الأبيض ، نهضت وجلست بالقرب منه حتى استيقظ ببطء ونظرَ لها بتعجب

ثم هتف بعصبية :

"من أنتِ؟"

وَقْع السؤال ألْجَمَها ، فهذه المرة الثانية يسألها نفس السؤال ،أول مرة اعتقدت أنه لم يتذكر أو يتعرّف عليها ولكن حدث الضد ، أما الآن فهذه حقيقة لابد أن تتعايش معها حتى يرسو على بر ذاكرته أجابته بهدوء :

"ممرضة ،أتيت لتمريضك من قِبَل المستشفى"

صاح باعتراض وأشار لها بالخروج :

"لا أريد أي ممرضة ، اذهبي"

لمعت عيناها بدموع وقالت بصوت مبحوح :

"لن أذهب مهما قلت "

رفع أحد حاجبيه بتعجب وغضب ثم صاح :

هل هذا بأمرك !!، لا أريدك هنا ،اذهبي وإلا سأطردك بنفسي ،كررت جملتها بهدوء:

"لن أذهب تحت أي ظرف ،افعل ما شئت ،سأتحمل،هذا عملي واعتدت على ذلك" اعتدل في جلسته قليلاً مما جعله يتأوه بألم صادر من قدمه، ركضت إليه وهي تسنده وهتفت بلهفة:

"راكان"

كانت قريبة منه ،نظر لعينيها بعمق ، اسمه خرج بطريقة جعلت دقة تائهة تعود أدراجها بداخله ،ولكن تَهَكَّم وجهه ورد بعنف:

"ابتعدي ،لا أريد مساعدتك "

وقفت تتأمله وهو يسند ظهره على الوسائد بوجه مرهق ، ابتسمت ابتسامة بسيطة وهي تشعر أن أول مقابلة كانت موفقة رغم عصبيته، حاولت أن تعطيه جرعة دوائه ولكنه رفض ، لم تلح عليه ، وضعتهم بجانبه وقالت مبتسمة ابتسامة عذبة جعلته يطرف عينيه بحيرة ، وقالت :

"ترك الدواء ليس عقاباً لي ،بل لك ، كل جرعة تتركها ستأخذ معها أياماً وتأخراً في فترة شفائك."

خرجت من الغرفة وعلى وجهها ابتسامة تعجب لها الجميع، ركضت سوزانا إليها لتعرف ماذا حدث ، طمأنتها سكنان بلطف، وتساءلت سوزانا :

"ماهي خطوتك الثانية ؟"

استنشقت سكنان الهواء وأردفت :

"منزل البحر "

فهمت سوزانا مَقْصِد سكنان ولاح طيف بسمة على وجهها وأطرفت بعينيها متفهمة خطة" سكنان "، ثم أخذتها للغرفة التي كانت مجهزة لهما بعد الزفاف ، ودلفت سكنان إليها وعادت إليها وخزات الألم ،تركتها سوزانا بمفردها ، فتحت سكنان خزانة ملابسها لتراها متراصة بتنظيم، لذلك لم تأت بحقائب ملابسها ، فهي أرسلتها إلى هنا قبل الزفاف بأيام،

اختارت فستاناً) شيفون (فضفاضاً بلون الكريمة أضاء لون بشرتها، وأخذت حماماً سريعاً ثم ارتدته مع حجاب بسيط ، وذهبت له مجدداً، فتحت غرفته بدون استئذان ، لتراه وهو يجلس على مقعد متحرك بعجلات جانبية خاص بحالته ، وينظر للسماء من الشرفة المفتوحة أبوابها ، والتفت عندما انتبه لصوت فتح الباب ، هتف بها بانفعال:

"هذا ليس تصرف مهذب من فتاة ،ألم يعلمك أحد قواعد الأدب "!

أجابته وهي تنظر للدواء الذي يبدو أنه أخذ جرعته التي تركتها

"والداي متوفيان منذ فترة وليس لدي أشقاء لو كنت تقصد ذلك"

أطرفت عينيه ولانت ملامحه ثم استدار للشُّرْفة مرة أخرى

وقال بصوت ثابت هذه المرة

"لماذا أتيتِ إلى هنا الآن ؟"

اقتربت منه ووقفت مستندة على باب الشرفة أمامه وأجابت:

"لأتحدث معك ، في أي شيء تريده"

نظر لها نظرة محذرة واعترض:

"هل هذا من ضمن برنامجك في شفائي" !

هزت رأسها بموافقة ،قالت وهي تتحرك و تقف بجانبه ثم نظرت للسماء مثل ما كان ينظر منذ قليل " : البوح سيريحك كثيراً ، أنت تحتاج للتحدث، ولكن "...

قاطعها بشراسة:

"أنت تتدخلين فيما لا يعنيكِ ، ما شأنك أنتِ" !

نظرت له وقالت بهدوء :

"إنه عملي ، وكل مهمة أرسلت لها من المستشفى اجتزتها بنجاح بسبب هذا النمط الذي أنتهجه ، فإزاحة الألم النفسي أول طريق الشفاء"

وتنهدت بألم وهي تتذكر معاناتها واستطردت قائلة :

"فأنا أعرف هذا جيداً ، خبيرة في هذا الأمر"

لفت انتباهه نبرتها المرتعشة الحزينة ونظر لها بتعجب ، وتعجب أكثر من رضوخه لإصرارها على البقاء ، فيها شيء جعله يصمت أو بالأصح جعل قلبه يخفق من جديد ، وجهها مألوف وكأنه رآها من قبل، عدى هذا اليوم بسلام وتكررت تصرفاته المنفعلة في اليوم التالي.

بعد ذلك بيومين تلقى خبر إرساله لبيت" البحر " كما لقبّته" سكنان، وتعجب من موافقة والديه، الذي يتعامل معهم بجفاء بسبب ذاكرته المفقودة على ذهابها معه، رفض بشدة، واعترض وأصرّ على المكوث بمفرده بعيداً حتى تهدأ أعصابه، تلقت قراره بتفكير ،حزمت حقائبها وغادرت قبله وكأنها استسلمت لرفضه.

في اليوم التالي كان في غرفته وقد استعد بصعوبة في ارتداء ملابسه ، وكدمة رأسه تجعله يتأوه ألماً كلما لامسها شيء ، أخرجه" عامر" من غرفته ثم ذهبوا جميعاً.

شرد أثناء الذهاب في الطريق وجحر الظلام الذي وقع به ، حتى وصلت السيارة بعد عدة ساعات في الطريق أمام المنزل ،وأخرج السائق المقعد المتحرك المُطْوي في الصندوق الخلفي للسيارة ،وفتحه حتى يجلس راكان عليه ، أسند راكان نفسه على قدمه السليمة وخرج من السيارة بمساعدة والده وصديقه عامر ،وجلس ببطء على المقعد المتحرك ، أسرع عامر لفتح الباب ودفعه أمام نظر راكان.. ظِل شبح يحلق هنا وهناك.. توتر من هذا المنزل ومما شعر به.

عدت فترة النهار عليها وهي نائمة بأحد غرف الطابق الثاني من " منزل البحر " ، أتت في ليلة الأمس وأخفت صورتها في المَرْسَم واستمرت تفكر كثيراً في خطواتها القادمة حتى سطع صباح هذا اليوم، ولم تدر متى غَفَت وتاهت في النوم بهذه الطريقة وكأنها تعوض فترة الإرهاق في الأيام الفائتة ، استيقظت بوجه مُحمر من كثرة النوم وتذكرت مجيئه ،اتسعت حدقتاها بفزع وقامت سريعًا ؛ لتغتسل وتبدّل ملابسها وهي تحاول أن لا تصدر أي صوت ، فبالتأكيد أنه في الأسفل أو ربما في غرفة بالجوار ، مرت دقائق حتى خرجت من الحمام الخاص بالغرفة واختارت رداء باللون الأزرق طويلاً ويتوسطه وردة من الساتان الأسود وحجاباً نفس لون الوردة ، ألقت نظرة أخيرة على مظهرها من خلال المرآة ووضعت لمسة بسيطة من الحمرة على شفتيها، تنفست بقلق ودقات قلب متسارعة وهي تتخيل رد فعله بوجودها وكادت أن تخرج حتى انتبهت لاهتزاز هاتفها ،أسرعت إليه وتأملت شاشته وهي تشهق من عدد المكالمات الفائتة من سوزانا ، أجابت على الاتصال بأسف:

"أوه سوزانا ،حقا آسفة ، كنت نائمة ولم أشعر بالهاتف على الإطلاق"

ردت" سوزانا "بنبرة قلقة ومستفسرة :

"لا عليكِ ،المهم ، هل التقيتِ براكان ؟"

جلست" سكنان "على الفراش وهي تتنهد بتوتر:

"ليس بعد.. كنت على وشك النزول للطابق الأرضي "

وتابعت بعتاب:

"لماذا لم تأتِ إليّ وتوقظيني من غَفْوَتي عند وصولك ؟

فإني كنت شديدة الإرهاق لدرجة لم يكفني إلا النهار بأكمله حتى استيقظت"

أجابت سوزانا باستياء :

- بالفعل بحثت عنك في الغرف الأخرى وعندما كدت أدلف إلى غرفتك كان عامر ينادني حتى نعود إلى منزلنا بعد إصرار "راكان "على تركه بمفرده باستثناء إرسال أحد الخدم ليقوم بطلبات المنزل والطعام كل يومين أو ثلاثة ، إنه يرفض وجود أي شخص بجانبه هذه الفترة ، أبي وأمي حزنا كثيراً لذلك وذهبا رغماً عنهما

ردت سكنان بنبرة متوترة وقلقة :

"ينتابني القلق كلما أتخيل ردة فعله عندما يكتشف وجودي "

تعجبت سوزانا وقالت:

"أول مقابلة كانت مبشّرة مثلما أخبرتيني ، فأعتقد سيتكرر نفس الموقف ولكن لا تيأسي ، هو يجلس بغرفة في الطابق الأرضي حتى يستطيع أن يخرج إلى الشاطئ بدون صعوبة ولأن غرفته بها شرفة مطلة على الشاطئ مباشرةً "

أكّدت سكنان بقوة وهي تنهض ثم أجابت بتصميم:

"حسناً ..لن أيأس أبداً ، سأتركك الآن حتى ألتقيه ،لا أريد التأخير أكثر من ذلك"

وافقتها سوزانا ثم انتهى الاتصال.

الفصل الرابع عشر

"منزل البحر"

كان يجلس على مقعده المتحرك أمام باب آخر غير الباب الرئيسي للمنزل ، لم تفتح هذا الباب الذي يبدو وكأنه باب شرفة عندما كانت هنا ،كانت تغلق على نفسها لدرجة أنها كانت تغلق النوافذ جميعها.

نسمات الهواء جعلت بعض خصلات شعره تتحرك متدلية على جبينه وعابرة اللفافة الطبية بتمرد ، كجناح طير يحلق ويتمايل بين نسمات الهواء ، ينظر أمامه بشرود ويواليها ظهره ، لا يعلم لماذا تذكرها ، تلك الفتاة العنيدة وأحس بالتعجب من رضوخها بسهولة للابتعاد بعد تصميمها على البقاء ،لمَ شعر بالاستياء ؟

وقفتها في الأعلى كانت كالملكة التي تترقب رعاياها من بعيد ، وسكن القلب طائراً يغني مقطوعة حزينة لعشق يطلّ على مواسم الألم ،وهتف الطائر بحزن بداخلها "يزدري وَتِين القلب هذا البعد القريب.. شيء غريب !

القرب يبعدني أكثر من المسافات ،ينسج خيوط الفراق من أشواك الألم وقتامة أعماق المجهول.. وأتساءل:

إلى أين ؟ إلى أين أيها القلب ؟"

نزلت أول درجة بقدم ترتعش تبعها خطوة أخرى للأسفل أكثر تصميماً ، أحدثت أقدامها صوتاً انتبه له حتى حرك عينيه جانباً ، ضغطت على أسنانها من التوتر وهي تهبط على آخر درجات السُّلم وتقترب منه بحذر حتى استدار بمقعده بشكل مفاجئ ويداه على العجلات الجانبية ، نَمّ وجهه عن الغضب الشديد وهو يلقي عليها نظرة شرسة تضمنت بشكل خَفي بعض الارتياح وشيئاً آخر لم يستطع تفسيره ، تَسَمَّرت في مكانها وهي تبادله نظرته بنظرة تقول له : اهدأ واسمعني.

حاولت أن تخرج صوتها حتى بالكاد أخرجته بصعوبة من شدة التوتر.

"جئتُ"

بمجرد تحريك فمها أشار لها بيده لتتوقف ولكن هو من توقف، كلماتها البسيطة تربكه ،نظراتها الصارخة تجعله بين أزقة التيه، توقفت نظرة عينيه على عينيها لفترة بسؤال عزم أن يسأله ، ولكن لا يرحب بأي سبيل للنقاش الآن.

بلعت ريقها والدماء تركض هرباً من وجهها من كثرة التوتر، حتى نطقت مرة أخرى بِتَلَعْثُم:

"أتيتُ لأجلك ولن أتركك ،أعرف أنك تتساءل لماذا أتيت بعد أن ذهبت منصاعة للأمر ولكن أنا هنا الآن ، وسأذهب بمجرد وقوفك على قدمك مرة أخرى ،لا أكثر من ذلك ، نفذَ رباط الجأش وصاح بعصبية :

"لا أريدك ،ارحلي واتركيني ،أيتها.... أيتها".....

ولم يستطع قول المزيد حرك عجلات مقعده بغضب حتى يذهب ويتركها ، ولكن وقفت أمامه تسد عليه الطريق وتركت ضعف عينيها يعلن دموعه:

"لن أرحل ،أعدك بذلك.. راكان"

نطقت اسمه بشكل جعله يرفع نظرته لها بشك وتحركت أنامله تريد أن تزيل هذه الدمعة عن خديها ولكن الكبرياء الجسور يعترض ، وجعله يطبق قبضة يده بقوة ثم حرك عجلات مقعده مرة أخرى لاتجاه جانبي، وخافت أن تعترض طريقه يغضب أكثر ، دخل غرفته وخرج بعد دقائق وهو يحرك مقعده بعصبية واضحة ، حتى اقترب منها مرة أخرى وألقى على وجهها أوراقاً نقدية، هتف:

"هذا ما أتيتِ لأجله ،هل تريدين المزيد لترحلي ؟"

تملّكها الألم الممزوج بالغضب وهتفت بوجهه وهي تقترب منه ، دنت قليلاً من مقعده ونظرت لعينيه عن قرب بتحدي:

"ولو ألقيت بثروتك كاملة تحت قدمي ،لن أرحل أيضاً"

وأشارت له بسبابتها وتابعت بقوة

"أتيتُ ولن أرحل ، فليكن هذا في حساباتك ،فلا تفكر كثيراً ، لن أرحل قبل أن تقف على قدميك"

نظر لها بتحدي وهتف:

"سأعتبر هذا وعداً وإلا سأتأكد أنك أتيتِ لأغراض أخرى "

بلعت غُصَة مؤلمة بحلقها وقالت بِتَلَعْثُم:

"حسناً"

صوته كان غاضباً ولكن عينيه حزينة متألمة وهو يقول:

"لماذا تفعلين كل هذا ؟" !

اعتدلتْ في وقفتها وتفحصت وجه الحبيب بعمق وقالت بحنان:

"هذا دوري وواجبي گ ".....

أعقب قولها صمت حزين ،وأجْفَل من إجابتها حتى تابعت وعيناها التي قد رحبت بالدموع منذ فترة" :كممرضة "

غضب من إجابتها واستدار بمقعده باتجاه غرفته حتى توقف أمام الباب وقال بنظرة جانبية متوعدة وهو مواليها ظهره:

"قبلتُ عملك ، ولكن ما اسمك؟"

أجابته مسرعة وقد بدأت البسمة تشق طريقها إلى وجهها ،" سكنان"

شعر بشيء لا يفهمه ، مثل ما شعر عندما رأى والديه ، وجوه مألوفة ولكن ضائعة في جوف الذاكرة ، دخل الغرفة ومد يده وصفق الباب بحدة .

ابتسمت ومسحت دموعها وقالت بهمس:

"أعرف أنك ستتعامل معي بقسوة ولكن أرحب بها راكان."

صعدت لغرفتها وشعرت بالارتياح لانتهاء ثاني جولة بنجاح في هذه الرحلة المؤلمة ، بدّلت ملابسها بعد دقائق برداء نوم من اللون الأبيض وانساب شعرها المتمرد الطويل على كتفيها كظل الشمس على منحدر جبلٍ ، خرجت للشرفة لتتنفس بعض الهواء وهي تعرف أن أقرب جيران إلىهنا على مسافة ١٠ دقائق بالسيارة ،إذاً لا داعي للارتباك والترقب من وجود غريب ،أما هو فلا يعرف بعد أنه زوجها لذلك تنظر له بملء عينيها بضمير يرضي ربها ،حتى تفاجأت بوجوده على الشاطئ وينظر بتيه للمياه ، تشاركت أنوار المنزل الخارجية مع نور القمر لتجعل المشهد واضحاً أمامها ، وعَبْق الرياحين يعطر الأنفاس ، يبدو أنه خرج من شرفته التي تطل على البحر مباشرةً ، ظلت تتأمله رغم أنها لا ترى وجهه وارتسمت ابتسامة عذبة على وجهها حتى استدار فجأة وقرر أن يعود لغرفته وتفاجأ بها ، تعلق نظره بوجهها الذي كانت تتطاير خصلات شعرها عليه برقة وبشكل ساحر تحت هذا الضوء القمري ،وابتسامتها التي ألقت بأسهم مارقة على قلبه مباشرةً ، ازدادت ابتسامتها عندما رأت تأمله فهو زوجها وظهورها بغير حجاب ليس خطأ بالطبع ،لذلك كانت مطمئنة.

دخلت غرفتها ببطء ، انسحابها جعله يفيق من شروده ثم أغلقت باب الشرفة واستندت عليه ببسمة عاشقة وخجولة ،وذهبت إلى فراشها مبتسمة.

عاد بمقعده بشكل بطيء لصعوبة حركة المقعد على الرمال وأفكاره متناثرة مثل حبات الرمل الذي يسقط عليها ندى الليل الصامت صباحاً.... أرسل شعاع الشمس نوره عبر فتحات باب الشرفة لتستجيب

هي بوجه متورد ،فتحت جفونها بلمعة أمل لبدء يوم ستبدأ فيه جولة أخرى معه .

اغتسلت وأدّت فرضها" صلاة الضحى "ثم اختارت بعناية ما سوف ترتديه ، حتى انتهت أمام المرآة بوضع آخر لمساتها الأنثوية على وجهها برقة واتجهت مباشرةً له ، فتحت غرفته ببطء وألقت عليه نظرة متفحصة وجهه النائم ثم لاحظت أنه ترك باب الشرفة مفتوحاً، ابتسمت ثم أغلقت الباب بخفوت وذهبت لتعدّ طعام الإفطار بعد فترة قد أنهت فيها الطعام المحفوظ في البراد بالمطبخ ،ذهبت إلى غرفته وأدركت أنه استيقظ عندما شاهدت باب غرفته مفتوحاً ،دخلت بوجه مبتسم ووضعت الطعام على طاولة أمامه.

نظر إليها بنظرة ماكرة وقال:

"يبدو أنه شهي ،لذلك ستعدّين كل وجباتي اليومية"

شاركته نفس النظرة الماكرة وهي تفهم ما يفكر به وأجابت بلا اكتراث:

"بالطبع هذا جيد جدا ، فهذه هوايتي على كل حال"

استفزته بهذا الهدوء وبدأ في تناول الطعام بشكل غاضب مما جعلها تكتم ضحكة كادت أن تفلت منها ولكن كظمتها ، حتى أنهى طعامه وأعطته دواءه بلطف ثم أمرها بالانصراف ، مر اليوم بدون مشادات بينهما، وتفاجأت في اليوم التالي أنه يأمرها ببعض الأعمال المنزلية بجانب إعدادها للطعام وذلك يظهر مخططه في جعلها خادمة أكثر منها ممرضة؛ حتى تغضب وتتركه ولكن ما لا يعرفه أنها تتحمل أي شيء إلا بعدها عنه.

مر أسبوع على هذا المنوال والأعمال تتكاثر عليها أكثر، وبكل يوم جديد.عمل جديد. ، بدأ الإرهاق يبدو عليها واضحاً رغم ابتسامتها وكأنها لا تبالي وهذا ما أغاظه أكثر ،وأكثر عليها الأعمال يوماً بعد يوم.

في مساء أحد الأيام كان قد يئس من إغضابها حتى تتركه ،شعر ببعض الشفقة عليها وغضب من نفسه لأنه هو الوحيد الذي يعلم أن بداخله شيئاً قوياً اتجاهها ،لا يريدها أن ترحل بل العكس ،شيئاً يصفعه كلما زاد الأعباء عليها ، ولكن تيهانه جعل منه إنساناً غاضباً دائما.

أتت إليه بكوب عصير من المانجو الطازج قد أتت بها في الصباح الباكر وهي تتبضع بعض الأشياء من مكان قريب .، وضعت الكوب على الطاولة بنفس الابتسامة التي كانت تغضبه وتريحه بآنٍ واحد.

هتف بها:

"أريد أن أخرج إلى الشاطئ "

أجابته بلطف وهي تنهض وتحرك مقعده من الخلف باتجاه باب الشرفة:

"حسناً "

لفحتها برودة الهواء وأحست برعشة ،وتوقفت أمام البحر وقدميها غارقة بالرمال ووقفت بجانبه حتى صدمتها جملته:

"هل تستطيعين نزول الماء الآن ؟"

شحب وجهها وهي تبتلع ريقها بصعوبة ،نظرت لانعكاس ضوء القمرعلى المياه ومدى البرودة الغريبة في هذا الشهر من السنة وقالت صراحة:

"إذا كنت تريد الصدق... فلا.. لا أستطيع"

ابتسم بانتصار ووجه عجلات مقعده ليذهب لغرفته ، ثم قال بقوة منتصر للتو فاز بجولته:

"كنت أظنك أشجع من ذلك ، اجمعي أغراضك وارحلي في الصباح."

يعلم أن هذا ليس سبباً مقنعاً ليطردها ، ولكن أراد أن يضعها أمام حقيقة ضعفها كي تقلل من هذا التمرد وتستجيب لإرادته ، وهو لم يدرك بعد أنه يختبر قلب امرأة تعشق ." توجه إلى شرفة غرفته المفتوحة حتى توقف عندما هتفت باسمه عالياً

"رااااكان"

استدار بالمقعد وُصدِم من تقاذف الأمواج بها عالياً ثم تهبط بشدة، حدّق بها بذهول ولاحت أمام عينيه مشاهد شبه ضبابية متسارعة حتى ظهر الألم على وجهه ،ثم انتبه لصوتها من جديد وهي تخرج من المياه وكأنها ثَمِلَة حتى وقعت بالفعل على رمال الشاطئ.

"رااااكان"

حرك مقعده بعصبية ولكن عاكسته الرمال، تنفست هي بصعوبة وهي تلهث، وفتحت عينيها بوجهها الذي تنزلق منه المياه وربطة حجابها التي أوشكت على كشف شعرها بالكامل ، رفعت نظرها قليلا؛ لتلتقي بنظرته المتطلعة بأسف ولوم ولمعة دفء غريب جعلتها ترتجف أكثر ،ثم قال بغضب!

"ما هذا الجنون ؟ !هل فقدت عقلك ؟" !

تعجبت من حديثه وقالت بنبرة مرتعشة ولكن غاضبة:

"هذه أوامرك."

صمت قليلا وهو يزم شفتيه بغيظ ، وصاح بها بعد ذلك بدقيقة:

"هذا عنادك وإثباتك قوة لا تملكينها ،ستؤدي بنفسك ذات يوم إلى الجحيم بسبب هذا التمرد "

بدأ جسدها يرتجف وكأنها على وشك الدخول في المرض بشكل عنيف، بالكاد قامت ، ووقفت خلف مقعده وذهبت به إلى غرفته ، حتى تصعد غرفتها بأسرع وقت فلا مجال للنقاش الآن وهي على هذه الحالة ،تعجب من تصرفها وبداخله ألف سؤال .

دخلت الغرفة بأقدام ترتجف وأغلقت باب الشرفة وكادت أن تذهب لغرفتها ، ولكن سقطت على الفراش الخاص به مغشياً عليها، اتسعت عيناه بصدمة وهتف بخوف:

"سكناااان"

بعد فترة من الوقت فتحت عينيها لترى نفسها مدثرة في فراشه.

وعلى جبينها" كمادة "مثلجة وتتساقط قطرات الماء التي التقطت حرارتها المرتفعة على جانب خديها ، نظرت حولها ولم تر أحداً ، نهضت بجسد ضعيف تغمره رجفة المرض لتبحث عنه،" أين ذهب ؟"

كل خطوة تكتشف كم هي مريضة وتحتاج للراحة الآن، ولكن كيف وقلبها يصرخ بها حتى تجده ،بحثت عنه كثيرًا في المنزل ولم تجده ، كان قد لاح ضوء الفجر والضياء يعود من بعيد كالمسافر.

لم يتبقّ غير الشاطئ خرجت مسرعة وهي تكاد تقع في كل خطوة وملابسها رطبة بسبب ما حدث بالأمس ، زاد ارتعاش جسدها وهي تستقبل الهواء بالخارج ،توقفت عندما وجدته يحاول الوقوف متوجهاً بِعَرَج ويستند على قدمه السليمة إلى المياه ،ركضت إليه وهي تبكي من مرأى هذا الضعف الذي يقاومه وكاد أن يسقط عندما استقبلته يدها بفزع وهي تساعده على الوقوف ، نظر لها نظرة طويلة ولوجهها الباكي الذي تنطق نظرته خوفاً وقلقاً عليه ،وقالت بلهفة:

"هل أنت بخير"

لم يستطع النطق وهو يراها هكذا واستمر يُحَدّق بها ولم يستطع تفسير هذا السيْل من المشاعر التي تتلاطم بداخله مثل موجات البحر الذي أمامه ، كررت جملتها مرة أخرى وهي تهتف :

"هل أنت بخير راكان ،لماذا كنت تقترب من المياه ؟"

أبعد نظره عنها وقال بألم:

"لأعاقب نفسي مثل ما عاقبتك. "

جرت الدموع أكثر على خديها ولم تشعر إلا وهي ترتمي بين ذراعيه وتضمه بقوة، تردد صدى صوت القلب بكامل كيانها، وقالت بصمت:

"هذا المكان حقي ،هذا الرجل زوجي"

توقف من الصدمة وأراد بقوة أن يضمها ولكن هذا خطأ ، ليس من حقه ذلك، أبعدها بقوة وهو يستند على حافة المقعد وجلس عليه ،ونظر باتجاه آخر حتى لا ترى ولا تكتشف أنها الآن امتلكت قلبه بالفعل ؛تفهمت تصرفه ودفعت بلطف مقعده إلى الداخل وهي تشعر ببوادر الأمل تعود مع ضياء هذا الصباح الذي أضاء أول بقعة مظلمة في ذاكرته.

دخلت من شرفة غرفته ثم ذهبت إلى غرفتها لتبدل ملابسها بأخرى جافة، وتذكرت ما حدث منذ قليل وهي تبتسم وشعرت أن المرض الذي كانت تشعر به منذ دقائق وكأنه لطف بحالتها وقرر الذهاب ،بدلت ملابسها ثم هبطت للأسفل.

لتراه وقد تمدد على فراشه وينظر للأعلى بشرود ،قالت بهدوء:

"بضع دقائق فقط ويكون طعام الإفطار معدّاً"

أجابها باعتراض:

"لا.. استريحي اليوم ،اتصلتُ بالمطعم حتى يأتوا بوجبات اليوم بأكمله ولأيام أخرى أيضاً."

أضافت بتعجب :

"لماذا ؟ "

صوب نظره عليها بعمق وقال بنبرة مليئة بالدفء:

"أنتِ مريضة ويلزمك الراحة لبضعة أيام."

وتابع وهو يشيح نظره بحزن وقال:

"يكفي ما سببته لكِ. "

ضم قلبها الألم لأجله عندما شعرت بنبرة الحزن في صوته العميق، وقالت وهي تحاول أن تهون عليه :

"أحياناً أكون عنيدة، وهذا ما حدث بالأمس، كنت محقاً عندما قلت ذلك، لا تلقي اللوم على نفسك.

نظر لها من جديد ولم يتحدث ،نظرته من تحدثت مع نظرتها المحبة التي تصرخ وراء هذا الهدوء وتعترف".... أحبك. "

مر وقت الغداء وناولته أدويته وأخذت هي أيضاً أدوية خاصة بارتفاع الحرارة. مرت عدة أيام أخرى وكانت تشاركه الطعام بعد قراره ذلك وعدم عملها بالمنزل نهائياً ، رغم أن الصمت ساد أثناء هذه الأيام ولكن عبّر عن أشياءٍ كثيرة بداخله وكأنه يستقبل هذا العشق بهدوء سيثور بمجرد وصوله ، وهو لم يكتشف بعد أن هذا العشق كان مستوطناً في دقات القلب، ولم يدرك أنه منذ أول نظرة سحرته بقلب رجلٍ منذ زمنٍ أحب.

في يوم قد عدى فيه الوقت إلى ما قبل الغروب وقد بدأت الشمس في غيبتها وراء الغيوم ومهدت الطريق للهواء الرطب أن يستمتع بوقته.

دخلت غرفته لتعطيه أدويته ولكنها لم تجده ووجدت باب الشرفة مفتوحاً، خرجت إلى الشاطئ واقتربت منه ،وقفت بجانبه وقالت:

"بماذا تفكر ؟ "

ألقى عليها نظرة جانبية غريبة ثم صوب نظره للأمام مرة أخرى ،وقال بحزن:

"سكنان ،لابد أن ترحلي وتتركيني"

التفتت له بذهول ولم تتوقع منه هذا الحديث بعد هذه الهدنة في الأيام الفائتة، هتفت بغضب:

"لماذا تقول ذلك ؟ هل فعلت شيئاً أزعجك ؟"

صاح بها وقد عادت النظرة الغاضبة مجدداً:

"كل ما تفعلينه يزعجني "

ثم لاح ظل لمعة الألم المليئة بالضعف بعينيه وتابع بحزن :

"آلمتك كثيراً، حتى عندما كدتِ أن تغرقي في المياه لم أستطع أن أنقذك، وضرب على قدميه بقوة وغضب وقال:

"لم أستطع أن أذهب و آتي لك بطبيب ولم يكن معي رقم طبيب بالقرب من هنا، عجزت كلياً عن فعل شيء."

هزت رأسها برفض وقالت باعتراض:

"لا تقل ذلك راكان ،قدمك في القريب ستقف عليها مجدداً ، لماذا يتملكك اليأس إلى هذه الدرجة ،لا أريد أن أراك كذلك مرة أخرى. "

قال وهو يستدير بمقعده متوجهاً إلى غرفته بغضب:

"حتى إن وقفت على قدمي ،ليس هذا العائق الأكبر، أنا رجل تائه ، لا يتذكر شيئاً عن ماضيه ،أنتِ لا تعرفي أي ألم أشعر وأمر به."

وقفت خلف مقعده وقالت تمنعه:

"قف ،لا تهرب من محادثتي مثلما تفعل دائماً ، حتى ذاكرتك ستعود لك في يومٍ ما، لابد أن تصدق ذلك"

أخفض رأسه بضعف وقال بنبرة يتخللها الحزن:

"إني ضائع سكنان.. ضائع بحق. "

كانت خلفه ولم تستطع أن تتحكم بدموعها وهي ترى زوجها بهذا الضعف ، دنت منه حتى اقتربت، وضعت يدها على كتفه وقبّلت رأسه من الأعلى بقوة زلزلته وتخللت أنفاسها بين أطراف شعره ثم توسدت رأسه بجانب وجهها وقالت بحب:

"أنا بجانبك لا تقلق ،لن أتركك أبداً."

بعدت قليلا وهي تشعر برجفته ورفع رأسه للخلف ونظره للأعلى ولعينيها الباكية وفرت دمعة من عينيه ،سقطت دموعها على وجهه

وامتزجت مع الدمعة الهاربة من عينيه لتزيد هذا القرب دفئاً ،ثم وضعت يدها على عينيه وقالت بعصبية:

"لا أريد أن أراك هكذا."

كانت هذه الجملة بالنسبة له بقوة قول كلمة أحبك.

أخذ يدها ووضعها على قلبه واستمر رأسه معلقاً للخلف وهو ينظر لها؛ ابتسمت بخجل ومسحت عينيها الحمراوين وهزت رأسها بشيء خجلت أن تقوله:

أحبك راكان.. أحبك زوجي الحبيب.

تبادلا الابتسامة مع النظرات الدامعة ،كتبادل الشروق مع الغروب في ريْعان موسم المطر ،بعد أن أدخلته غرفته ذهبت إلى غرفتها والسعادة تملأ قلبها.

أحبها من جديد جذبت هذا العشق الذي اعتقدته هاجر للبعيد ،قطفت ثمار الحب من بين الأشواك من أعلى الأغصان والعناقيد، لتعود خفقات القلب بعد محاربة إعصار بحر الألم الشديد.

وقلبي... يتذكره

الفصل الخامس عشر

"خطة السندريلا"

إلى هنا تسير الأمور وفق ما أرادت ، ولكن تريد أكثر من ذلك قبل أن يزيل جبيرة قدمه وتفي وعدها بالذهاب لابد أن تكون حققت ما أرادته، أزال التوتر بعضاً من سعادتها ولكن يوجد رب كريم يستمع للدعاء، في خلال دقائق كانت اغتسلت وتوضأت واستعدت للصلاة ؛ لترفع يدها بكل الأماني التي جمعتها بأمنية واحدة هي عودته.. من الفقدان وحرّ غربته ، من فيضان التيه وعودة قلبه برقته، من نشيج الآهات من ضيع ذاكرة الخفقات ، ليعود قلبه إلى قلبي بمحبته.

وتقبّل القلب رحلته.. حتى يفيق هو من فقدان فكره وغفوته ، ستتحمل بصبر سيْل قسوته.. حتى يعود أدراج عزيمته وقوته.

رغم أن الوقت كان مبكراً على الذهاب إلى الفراش، لكن فضلت أن تتركه بعد هذا الاعتراف الصامت بالحب لكليهما ،تركت له الليل يذهب به إلى عناق الأمل.

امتلأ الفراغ أمامه بملامح وجهها التي لا يعرف لمَ قلبه يحفرها منذ زمن ، هل كانت تعرفه من قبل ؟

شك في ذلك! ولكن لماذا لم تقل له ؟ !

خالجه ريْب وشك من هذا الأمر ربما لأنه أحس بشيء منذ أول مرة رآها ، أم أن هذه لم تكن أول مرة ؟ ذهن شارد وتفكير تائه وقع بين صفحاتهم ،مر الليل بنسمات داعبت أحلامها برقة ؛ لتبزغ الشمس بنورها وتوقع على دوامها الخالد ،وتنتقل أنوار الصباح من خلال رموشها لتزعج عتمة الغفوة وتستيقظ وهي تتثاءب بكسل

أنهت روتينها الصباحي من استحمام ووضوء يليه صلاة ثم ارتدت رداء جديداً من ملابسها ، وتوجهت للطابق الأرضي ،لترى باب غرفته مغلقاً، وهذا يشير إلى أنه لم يستيقظ ؛مطت شفتيها بتعجب ؛لأنها تستيقظ كل يوم وتراه قد سبقها ، وخطر شيء في عقلها جعلها تبتسم ،ربما أخذ منه التفكير بما حدث بالأمس مأخذاً عميقاً من الفكر جعله مستيقظاً لوقت متأخر من الليل ،انتبهت لقَرْع الباب فذهبت لتفتحه ،ودقيقة وكانت تأخذ طعام الفطور من عامل بخدمة" الدليفري "،دلفت إلى المطبخ مباشرة حتى ترتب الطعام بشكل منظم ، وشعرت بالامتنان لراكان عندما هوّن عليها الأعمال المنزلية بمجيء أحد الخدم بواسطة مكتب خاص بهم قد أخبرته به سوزانا ، ويأتي الخادم كل يومين ،فهي لا تريد أن تهمله أثناء هذه الأيام ، عزمت على بدء أهم أمر في رحلتها هذه.

تأخر في الاستيقاظ لدرجة تصاعد قلقها وذهبت إليه لتطمئن ،فتحت الباب بدون أن تطرقه ووجدته وهو يتمتم بعض الكلمات غير المفهومة وينزف جبينه عرقاً غزيراً وكأنه مريض حمى ،وضعت يدها على جبينه تتحسس الحرارة ولكن للعجب ليست حرارته بهذه الشدة فهي ممرضة وتعرف ذلك ،إذاً هذه حرارة الغرفة والنوم لا أكثر ولكن يبدو أنه يرى كابوساً مزعجاً ،هزت كتفه بقلق وهمست باسمه حتى فُتحت جفونه بقوة وكأنه يرى شبحاً.

انكمش حاجبيه وهو ينظر لها بتمعن لتتشابه ملامحها مع ملامح بالكاد ميزها في حلمه وكأنها تقف وراء زجاج مغبّر بالأتربة ، بلع ريقه شبه الجاف وتمتم:

"كابوس ،كنت أرى كابوساً. "

لانت ملامحها وقالت بلطف تريد أن تريح أعصابه وهمست:

"استغفر ربك ولا تفكر بهذا الكابوس ،فلن يؤذيك لا تقلق. "

ثم اعتدلت في وقفتها وابتسمت:

"دقيقة والفطور يكون أمامك"

اعتدل في الفراش ببطء وأخذ منديلاً من علبته الموجودة على الكومود بجانب سريره": أريده على الشاطئ "

أجابته بابتسامة وقد ارتاحت للين ملامحه بعد عبوسها منذ قليل:

"حسناً"

بعد دقائق قد أعدّت طاولة صغيرة مرصوصاً عليها طعام الإفطار، ورتبت بيدها الأطباق ونسمات الهواء الصباحية تربت على بشرتها برقة ،كان يتأملها بشرود حتى جلست أمامه مبتسمة ،تحدثت بمرح:

"تناول فطورك حتى لا تخرج الأسماك وتأكله."

سأل على حين غِرّة وهو يتفحص وجهها بتمعن:

"هل قابلتك من قبل سكنان ؟ أو قابلتيني؟ قبل الحادث."

لا تدري إن كان لاحظ رعشتها عندما سقطت ملعقة صغيرة من يدها أو لا ، لا تريد أن تفصح عن ذلك ، هي تريد أن يتذكر بنفسه ولا تضعه أمام الأمر الواقع بأن له زوجة ولا يتذكر عنها شيئاً.، وكيف يتذكر وكان يوم الحادث هو أول يوم لحياتهما الزوجية فلا ذاكرة بينهما ولا ماض.، حاولت التَّمَلُّص بدوران الحديث والتطرق إلى أحاديث أخرى:

"ربما ، فأنا أعرف أنك رسام مشهور ربما قابلتك صدفة في أحد الأيام، لا أتذكر صدقني ،فذاكرتي مثل السمكة ."

وسألته وهي تهم بتناول طعامها وتخفي وراء ذلك سيلاً من القلق ،:

"لا تقل لي أنك لا تعرف أنك رسام عالمي مشهور إلى الآن."

أجابها بنظرة متفحصة:

"أعرف ذلك.. فعندما كنت بالمشفى كانت تأتي الورود ببطاقاتٍ مُدَون عليها بضع كلمات فهمت منها ذلك.

إنني رسام ويبدو أنني مشهور أيضاً."

ابتسمت وهي تمضغ الطعام ببطء:

"ما أعرفه أنك مشهور عالميٌّ"

وتابعت بمزاح:

"هيّا تناول فطور وكُف عن الأسئلة... فميعاد الدواء آتٍ "

عادت النبرة المتسائلة الغاضبة في صوته عندما قال :

"لذلك تبهرك فكرة الجلوس مع الرسام الشهير بينما كثيرون يتمنون ذلك."

حدّق بها بألم وهو يطرق بقبضة يده على الطاولة مما جعل الأطباق تهتز، وقال بنبرة تتهمها بالخيانة:

"مغامرة لطيفة ستروي تفاصيلها لأصدقائك بحماس لتنالي استحسانهم التافه ."

لم تصدق ما سمعته منه ،نهضت بعصبية وهتفت بعدم تصديق:

"مغامرة ! إصراري على وجودي بجانبك رغم إهانتك لي دائماً أتحسبه مغامرة !! هل تعرف أنني لأول مرة أشفق عليك ؟ "!

ثم تحركت متوجهة لغرفتها وعلى وجهها الحزن الذي عانقه الغضب والعبوس .

قطَّب حاجبيه بضيق من سخافته ،فهي لو بهذه التفاهة ما كانت لتتحمل كل تلك الإهانات لمجرد مغامرة ،حرك مقعده تجاه غرفته ومنها إلى باحة المنزل الداخلية أمام السلم مباشرةً ، وهتف باسمها بصوت عالٍ مما جعلها تهبط مسرعة وعلى وجهها الخوف مِن أن يكون أصابه مكروه.؛ابتسم عندما رأى لهفتها وهي تركض إليه ، وقالت محاولة إظهار الصلابة وبنظرة مرتبكة:

"ماذا تريد ؟"

طافت لمعة مكر بعينيه وقال بثبات:

"لم أتناول طعامي بعد ، أحضري الدواء والحقيني."

أدار مقعده وهو يكتم ابتسامته الماكرة وتوجه للشاطئ من خلال غرفته، أما هي لم تستطع كبت ابتسامتها الواسعة ، وهي ترى طريقته الطفولية العنيدة في إرضائها ،أخذت أقراص الدواء ولحقته إلى الشاطئ وتظاهرت بالضيق ،أمرها بالجلوس فجلست مقتضبة وامتنعت عن مشاركته الطعام مما جعله يغضب ويمتنع هو الآخر بتذمر.

لم تستطع منع ضحكتها الرقيقة من الظهور، حتى أجفل وظل يتأملها بشعور يجعل القلب يرفع رايته البيضاء ويرحب باجتياح العشق وهمس:

"لا تتوقفي عن الابتسامة أبدًا ، آه لو تعرفين كم جميلة ابتسامتك ورائعة مثل رؤية الفراشات الملونة على الزهور الجميلة النادرة؛ ليذوب سحر الربيع وتتدرج ألوانها وتكوّن مشهداً خلاباً يسرق القلوب.

گبركانٍ عيناكِ.. گحممٍ من النيران عيناكِ

گنسيم طيف الأمان عيناك...كقسوةٍ من جوف الحنان

تبعثها مراسيل مشاعري التي تنسمت أثر الأمل من عينيكِ

لا تكثري النظر بي.. لا تكثري الأثر بي

فأنت لم تكتشفي بعد ماذا فعلت بي.. عيناكِ

أعقب قوله صمتها الذي عصف بنظرة عينيها العاشقة الدافئة حتى جعلها أكثر عشقاً وهمست برقة:

"هل أنا كذلك.. راكان ؟ "

أحاق به همس الحب الذي يأبى أن يكابر أكثر من ذلك.

وقال بنبرة أجفلتها من حُنو دفئها:

"وأكثر."

تلا الدقائق التالية صمت تتحدث فيه النظرات الناطقة حتى عزمت على بدء ثالث جولة:

"هل تعرف أنه ليس لدي إلا صديقة واحدة ؟ ولكن"... ،

ورسمت على وجهها الحزن مما جعله يتساءل:

"ولكن ماذا ؟"

عبّرت بألم حقيقي قد غلّف وجهها بخطوط الحزن وكأنها سجينة تعترف بجرمها تابعت:

"هل تريد أن تستمع لقصتها ؟"

تعجب من نبرة الألم التي كشفها صوتها وأجاب:

"لم ' لا.. ولكن يبدو وكأن قصتها مأساوية "

بلعت ريقها ونهضت وهي تحمل الأطباق عن الطاولة ،وقالت:

"في فترة المساء حتى تكون أخذت كل جرعات الدواء ولا يأخذني الحديث وأسهو"

وافقها بلطف وتطلع إلى الأمواج المتضاربة التي تشبه أرجاء فكره وذاكرته ،حتى أتت فترة المساء وأتت معها سندريلا التي تسير على خطا شهرزاد.

الفصل السادس عشر

"سندريلا بزي شهرزاد"

تمدد على فراشه بصعوبة وهو يتنهد بضيق من قيد قدمه ، ولكن تبقى القليل على تحريره من هذا القيد ،دلفت إلى غرفته وقالت بحماس:

"هل أنت مستعد ؟"

لبُرْهَة لم يفهم ما تقصده ولكن تذكر أمر صديقتها وقال بهدوء:

"هيا أرو لي ما حدث ؟"

حركت سكنان مقعداً بالقرب من فراشه ثم جلست وبدأت...

شقت طريقها بالحديث منذ البداية، بداية ضعفها ،وكم كانت تخاف بعد وفاة والدها، كم تعذبت ، ولكن تحت غطاء الصديقة المجهولة. ظهرت العصبية على وجهه وهتف:

"تعترض ،تثور.. لمَ هذا الضعف؟"

تبشّرت من غضبه ،إذاً تفاعل معها ويفكر، توقفت عندما رأته بدأ يغلق عينيه ويتيه في النوم ،ابتسمت بحنان وودعته بكلمة هامسة حرصت أن لا تحدث صوتاً:

"آحبك " ، وشبهت خطتها بخطة شهرزاد في سرد القصص.

خرجت من الغرفة وأشعة الأمل تُحيي هذا الظلام أمام عينيها ، ثم صعدت لغرفتها وخلدت إلى النوم سريعاً، ليمر الليل بصفحته المظلمة وبدأت سرابيل أشعة الشمس تكسو الأرض بدفء حنون، استيقظت لتراه كالأمس لم يستيقظ مبكراً ، كررت ما فعلته بالأمس وانتظرت حتى يستيقظ ويتناول فطوره ، ليفتح باب غرفته بعد دقائق وهو متكئ على "عكاز " في يده اليسرى باتجاه قدمه المصابة ويقف مبتسماً، لمحته من بعيد وهي تسقي أحد أحواض الزرع الصغيرة في أحد الجوانب ، تركت الدلو الذي كانت تسقي به وأسرعت إليه بوجه مشرق وهي تلاحظ وجهه النشط أكثر من العادة:

" صباح الخير ،يبدو أنك أخذت قسطاً كافياً من النوم بالأمس "

استدار وهو يبتسم حتى اقترب من الشرفة ووقف يتأمل سحر الصباح:

"هناك أمل ،هناك غد بمفترق طرقه الذي يشرق أحدهم ويبتسم"

همست برقة بدون أن تدرك:

"هناك أنا. "

التفت لها بنظرة متمعنة عميقة تستشف أبعاد هذه الإجابة بمحاولة حائرة برزت من عينيه ،يحاول فهمها وفهم هذا الغموض الذي يحيق بها.

تلعثمت وحاولت أن تخفي ارتباكها مما تفوّهت به للتو ، وحاولت أن تجد حلاً لتغير مجرى الحديث ولكن قد سبق السيف العذل ،حتى استطاعت أن تجمع بعض الكلمات السريعة وهي تتهرب من نظرة عينيه قائلة:

"سأذهب لإحضار طعام الإفطار حتى تأخذ الدواء "

وانصرفت قبل أن يجيبها لتخفي احمرار وجهها وارتباك نظرة عينيها التي تفصح عن الكثير بداخلها ، ذهبت مباشرةً للمطبخ وهي ترتجف بعض الشيء ، أسندت يديها على رخامة المطبخ و تنفست بشكل سريع، هفواتها البسيطة تجعله يرتبك ويقع في دائرة التِّيه ،لا تريد ذلك ،لا تريد مواجهته بعاصفة الحقيقة مرة واحدة حتى لا يتيه أكثر ،فمخططها كاليد التي تجذبه خطوة بخطوة إلى اكتشاف هويته بطريقة أهدأ ومراعية توتر واندفاع أفكاره الشاردة التي تضج بداخل هذا العقل ، لابد أن تحذر بعد ذلك حتى لا يشك والله وحده يعلم ماذا سيحدث آنذاك.

حملت صينية الطعام بيد مرتعشة قليلاً وتوجهت إلى الشاطئ من الباب الرئيسي للمنزل وليس من غرفته وفعلت ذلك بعفوية، أو ربما تريد أن تبدو أكثر جدية بهذه اللفتة، كان قد استخدم المقعد بدل العكاز رغم ثقل حركة المقعد على الرمال وأخذ معه طاولة الشاطئ الصغيرة، نظرته شاردة ويفكر في أشياء ترهق ذهنه من غموضها ،حتى أتت هي ووضعت الطعام أمامه بريب من نظرته المتفحصة، بعد دقيقة بدأ في تناول الطعام وشاركته هي بترقب حتى تحدث فجأة وقال:

"ماذا حدث لصديقتك بعد أن انصاعت لأمر قريبها في الزواج من ابنه الأكبر ؟"

رجعت بظهرها للخلف وتوترت أكثر وحاولت أن تبدو طبيعية وهي تجيب:

"لا أحب التحدث كثيراً في الصباح ، هذا يبدو أجمل في المساء "

زمَّ شفتيه بضيق وقال:

"ربما تعاطفت معها."

بلعت ريقها بمرارة ركضت إلى مؤق عينيها وأكدت شعوراً بعيداً يسكن أعماق وتين القلب، وانتفضت سكنات الفؤاد بعد هذه الجملة حتى لو قالها بعفوية ولكن هذه خاطرة من عقله الباطن" :يشفق عليها "

تابع حديثه وهو متعجب من حزنها الذي يُقذَف من عينيها ولا ينتهي:

"أو ربما غضبتُ لضعفها هذا ،كان عليها أن تقوى أكثر من ذلك وتدافع عن حقها "

هدأت بعض الشيء من اتزان حديثه الآن وأجابت عاتبة:

"وعليك أنت أيضاً"

استقبل جملته بفهم وأخفض عينيه على الطعام وهو لا يراه وأعقب ذلك صمت طويل أزعجها ،قالت معتذرة :

"آسفة"

هز رأسه بالنفي وهو يأخذ فنجان قهوته:

" لا تتأسفي ، فأنت محقة سكنان، ولكن صدقيني لا أعرف من أين أبدأ؟."

أجابت بحماس دبَّ في صوتها فجأة لمجرد هذه المبادرة المبشرة بالخير

"الرسم"

لم تظهر أي تعبيرات على وجهه بل ظل على جموده وثباته وسأل:

"أتعتقدين ذلك ؟ سأشعر بخيبة هائلة لو عجز القلم بيدي ولم يتحرك، هذه مجازفة كبيرة فلا تستهيني بها."

حركت وجهها بالنفي مبتسمة ثم قالت بجدية :

" ولكن لم تفقد ذاكرة أناملك ،فهي ستفعل ما تعودت عليه ، ولكن ما عليك فعله أن تترك اليأس بعيداً عن فكرك وتلقيه في بئر التفاؤل ،تفاءل فإن التفاؤل خير كبير."

كان ينظر إليها ويريد أن يستمع لحديثها أكثر ، حتى نبرة صوتها المرتجفة أحياناً تعجبه ، لم يترك قلبه لمحة إلا وأعجب بها.

خائن يا قلبي...

أعدّت سريعاً كل ما سيحتاجه وجهزت كل شيء في غرفته ، وخرجت إلى الشاطئ وهي تركض كالطفلة حتى وقفت أمامه وهتفت:

"هيّا... لقد جهزت كل شيء."

ابتسم لمرحها الطفولي الذي هزم بعض خطوات التراجع وقال:

"فلنبدأ إذاً"

اقتربت حتى أصبحت خلف المقعد ودفعته بخفة وهي تضحك عالياً بدون سبب غير أن خطتها تسير وفق ما تريد وأكثر ،عندما وقع نظره

على الأقلام والفرشاة والألوان ارتجفت يداه ، وأحس بالصدمة عندما أخذت هي القلم ووضعته بيده ورفعتها تجاه اللوحة بضغطة حنونة جعلته لا يستطيع إبعاد نظرته عنها بدفء ، لو لمحته وهو منتبه ليدها على يده لابتعدت وهي ترتجف من الخجل.

بدأت تحرك القلم وهي ممسكة بيده وتتسع ابتسامتها كلما رسم القلم خطاً، حتى لو عشوائياً ،وتُردد بحماس وهتاف:

"هيا راكاان ،هيااا."

سقط القلم من يده عندما لم يستطع تحريك أنامله بالرسم ،فيبدو أن أنامله فقدت الذاكرة أيضاً"..... هذا ما قاله لنفسه بيأس. "

انقبض قلبها لحزنه الواضح في عينيه وزاد عندما قال بغضب وألم:

"قلت لكِ.. هذه مجازفة كبيرة ولن أستطيع مواجهتها الآن. "

جلست أمامه على ركبتيها باكية وهي تسند رأسها على قدميه،وقالت وهي تعترف بأنها أخطأت وكأنها تعترف بجُرْم عظيم فعلته:

"آسفة راكان ،حقا لم أقصد ذلك، كنت أريد"..

ولم تستطع إكمال جملتها وهي تعرف أن أي كلمة ستقولها ستهينه، ارتعش جسدها وهي تبكي حتى ألقت بحصون قلبه في الرمال وطفا الحنان بلمسة يده وهو يربت على رأسها الساقط على قدميه من البكاء وقال بحنان:

"لا تبكي سكنان، سأحاول مرة أخرى."

رفعت رأسها بسرعة ونظرتها غمرها الأمل مجدداً، وهمست:

"لأجلي."

وهذه المرة لم تحاول إخفاء الحب من نظرتها أو نبرتها وكررتها مؤكدة:

"من أجلي.. حاول من أجلي. "

ارسم لوحة تحيي آخر لحظات وجودي ،لوحة تخلد ذكرى تجمعنا معاً ولن تستطيع نسيانها أبداً ، لوحة خطوطها تبتسم لها دقات قلبك ويستحي منها الضعف ،أخذت قلماً آخر ومدت يدها به حتى أخذه ولم تفارق نظرته الحانية عينيها.

أول خط بدا متعرجاً والآخر، وتلاه عدة خطوط عشوائية ،وبدأت يده بالتعرّف على ماضيها وبدأ الأمل يداعب أنفاسها وبدأت ابتسامتها تتسع بفرحة لبدء خطوات الشفاء الحقيقية ، جلست بمقعد خلفه حتى لا تشغله، التزمت الصمت وهي تنظر للسماء من خلال الشرفة وتحمد ربها بصمت ،حتى عادت بنظرها مرة أخرى وتفاجأت أن اللوحة تجمع ملامحها، عيناها ،شفتاها ،أنفها حتى شعرها العسلي، ابتسمت بحب له لكنه لايراها فقد كان كالطفل التائه من والدته وفجأة رآها ،گورقة الغصن المائلة حد الكسرة وأتى الربيع وجدد صباها ، گرطب الأرض بعد عبوس الليل وسطعت حواجب الشمس لتجفف ثراها، توقف والتفت لها بوجه مبتسم ومنتصر ، ثم قال بعدم تصديق:

"نجحت سكنان.. نجحت وفعلتها."

اقتربت منه وجلست بمقعد قريب بجانبه وأفعم الحنين صوتها:

"صدقني ستشفى قريباً.. وقريباً جداً."

رفع يده قليلا ولكن خفضها مرة أخرى بضيق فليس من حقه أن يمسك يدها حتى وإن أراد ذلك بقوة ؛ راقبت انفعالات وجهه وفهمت ما حاول أن يفعله وتراجع ،لكن هي تعرف أنه من حقها ذلك؛ فبادرت هي ولامست أنامل يده برقة ،وتركت عينيها تقول ما تريده للمعة عينيه العاشقة حل المساء بعودة سندريلا بزي شهرزاد.

بعد أن تناول طعام العشاء ثم دواءه ، طلب منها أن تخبره بما حدث لصديقتها المجهولة ، حتى سردت له كل ما حدث من إجبار الخطوبة حتى خروجهم من منزلها بعد تصميمها ذلك. ؛ابتسمت حين رأته يغفو مثل الأطفال بمجرد إلقاء قصة قبل النوم ،أطفأت الأ نوار وذهبت لغرفتها.

ولكن قد بدأ شبح الماضي يطل ويذل هدوء أحلامه وغفوته ،كان يتأرجح ما بين كلمات ترويها بعذاب نبرة صوتها وبين أشباح ضبابية غير مرئية تماثل ما ترويه ،هل هذا من أثر حديث قبل النوم أم ماذا ؟!

ويسير النهار بهدوء بين الرسم الذي يقرّب المسافات أكثر دون أن يشعر وبين الحلقة اليومية من قصة الصديقة المجهولة التي اعتاد عليها بشغف لمعرفة المزيد.

كان قد مرّ وقت طويل وسارت الأيام وهي تروي له كل يوم معاناتها الماضية وتدفعه بحماس للرسم الذي وكأنه يشكل خريطة الماضي حتى موعد التذكر ، و اقترب ميعاد، فك الجبيرة ليتحرر من هذا القيد ،مع

قيد أكبر يطل من رأسه ،عند كل ليلة مساء يودع فيها يوم تفاؤلي ويعود الليل مثلما كانت تعود صديقتها في الليل بقسوتها ،يأتي عليه الليل بالأرق والكوابيس المزعجة.

حتى أتى صباح يوم، كان تبقى منها آخر مشاهد حكايتها ،وقد توقفت عندما أتت بها الطبيبة ثم تركتها بسبب شيء طارئ ،كانت تدعي ربها وهي تراه يستمع وهو شارد وكأنه يرى كل ما يسمعه وينكمش حاجباه ضيقاً ويصيح بغضب على هذا الظلم ،وتدعي بأن يكون لهذا تأثير قوي عليه حتى يتذكر، وكانت سوزانا تتابع معها عبر الهاتف آخر التطورات حتى تطمئن والديها الذين ابتعدا هذه الفترة رغماً عنهما.

وقد أفصح خلال تناول وجبة الإفطار برفضه لمعرفة نهاية قصة صديقتها، تعجبت منه وقالت بضيق :

"لماذا؟ فأنت كنت متلهفاً لمعرفة التفاصيل كل يوم."

قطب جبينه وتنهد بعمق:

"لا أعرف ماذا تفعله بي هذه القصة ،أحلم بها كل ليلة مثل ما ترويها تماماً،هذا يزعجني كثيراً ولا يريحني. "

وقفت معترضة باستياء:

"ليس هذا السبب ،قل إنك مللت وسوف أفهم."

نفى بقوة واعترض:

"لا.. ليست هذه الحقيقة ،هذا ما يحدث بالفعل.

أرجعت هذا بسبب تفاعلي وحزني على هذه الفتاة برغم إعجابي بقوتها عندما انتقمت بعدل ،ظُلمت كثيراً وعندما انتقمت.. انتقمت من بواطن الشر بداخلها أولاً ثم الآخرين... كم هي قوية."

ابتسمت قليلا وهي تجلس مرة أخرى حتى ابتسم هو أكثر وقال بمرح:

"وكأني أمدحك أنتِ" !!

أجابت وهي تهز رأسها بثقة:

"هذه صديقتي ، وشأنها شأني "

بادلها الابتسامة وقال بتعجب:

"لماذا تصري على عدم إخباري اسمها ،هل هذا يعتبر سر لهذه الدرجة؟" !

أجابت بهدوء وتمعنت في عينيه:

"ليس سراً ولكن أريد ذلك ، ولا يوجد سبب معين.

أحيانا عندما نسير في الطرقات تأخذنا رجفة ألم، تجعل من الحديث منبع السكون والراحة الوحيد ، وننظر حولنا لأبعد غريب عنا ونتحدث ونتحدث حتى نعود للهدوء ، وعندما يسألنا هذا الغريب عن اسمنا نشعر بالضيق ونبتعد رغم أن ما رويناه أكثر أهمية"

هز رأسه بموافقة:

"هذا صحيح أوافقك الرأي."

ثم تابع بشيء قد تذكره للتو:

"جيد أنني تذكرت ،عامر زوج شقيقتي سيأتي غداً ومعه الطبيب لإزالة هذه الجبيرة ،اتصل بي في وقت مبكر من صباح هذا اليوم وأخبرني بذلك."

صُدِمت من ذلك ولم تتفوَّه بحرف وتردد صدى جملة قد وعدته بها في ثاني لقاء لهما عندما أتت إلى هنا:

"سأرحل عندما تقف على قدمك مرة أخرى. "

أغرقها الشرود في صمت طويل غلّفها بغموض حزين ، وتعجبت أن سوزانا لم تخبرها بذلك فيبدو أنها سهت عنها.

فاقت على صوته وهو ينطق اسمها:

"سكنان"

حاولت أن تخفي توترها ولا يظهر في صوتها لذلك همست:

"ماذا ؟"

راكان باستغراب وهو يضع فنجان قهوته الفارغ على الطاولة:

"أين ذهبت بالفكر ؟ نظرتك وكأنها غادرتك للبعيد وتركتك تائهة.

قالت سكنان بنظرة بها لمحة رجاء:

"هل لي بطلبٍ منك ؟"

راكان بتأكيد وفضول:

"بالطبع."

قالت وهي ترجوه بعينيها أن يوافق:

" في أحد الأيام وأنا أتبضع بعض حاجيات المنزل رأيت مطعماً هادئاً جداً وبسيطاً، أتمنى أن أزوره اليوم ،فمنذ رأيته لم أستطع نسيانه."

حاصرها بعينيها وقال:

"ألا تستطيعِين الانتظار ليومين فقط حتى أتخلص من هذا القيد ،وأشار لقدمه"

أجْفَلت بحرج ولم تعرف بماذا تجيبه ،فهي ستغادر غداً ولابد أن تنهي كل شيء اليوم ،حتى فاجأها بحديثه مجدداً:

"سأذهب معك.. اليوم."

ابتسمت ابتسامة واسعة باغتها بابتسامة أوسع منها ثم تابع:

"عند الساعة الثامنة سنذهب"

أومأت بموافقة وقالت بسعادة :

"إذًا سأتصل بأحد المكاتب؛ ليرسل لنا سيارة لتأخذنا."

راقب حركتها الطفولية وهي تنهض وتركض كالطفلة المدللة.

انتظرت وصول المساء بفارغ الصبر ، واختارت رداء طويلاً مَخْمَلياً بلون البنفسج وحجاباً مقارباً لنفس اللون، ووضعت لمسات من الزينة على وجهها التي جعلت توهج وجهها أكثر وضوحاً، ابتسمت وهي تلقي نظرة أخيرة على مظهرها الذي نال رضاها كثيراً ثم ذهبت إليه وهي تسرع الخُطا .

نظر لساعته فاكتشف تأخرها لعدة دقائق حتى سمع حركة خلفه وهو في باحة المنزل ،استدار؛ ليعاتبها على التأخير ولكن توقف ، وراقبها وهي تقترب منه بكل خطوة خطوة كالسهم إلى قلبه، ردد كلمة داخل نفسه. " يا إلهي كم هي رائعة الجمال"

أحبك وأُصْبِت بداء العشق لأقع فريسة خفقات القلب، وما لي سلطان على قلبي.

لا تنظري لي هكذا يا امرأة سرقت مني غفوة عيني وصحواها.

أتحدى الشوق بنسائم عطرك ،ويصرخ بي مجدداً أريد لقياها.

عارضت قلبي واعترضت طريقه ولكن أخرسني.... إني أهواها.

إني أهواها... بكل عشق الرجال أهواها.

لن أكابر بعد اليوم عشقك فأصبحت قلبي ولعيني سكناها.

عبر همس صوتها بين خيالاته وشروده حتى عاد ،وتحركت نظرة عينيه على عينيها بضمة ثم أخفض نظره عنها سريعًا عندما وقف حائل التعقل أمام عينيه ؛ليضع أمامه حقيقة أنها لا تَحِلُّ له حتى يتمعن فيها هكذا برغم جرأتها بعض الأحيان عندما قبّلت رأسه ونظراتها المتطلعة

إليه ،هي تعرف ما يجول في نفسه الآن ،ظهر على وجهه بقوة ،وملأتها السعادة عندما أدركت أن مظهرها أعجبه حتى شرد بهذه الطريقة.

قال بثبات وهو يشيح نظره عنها كل عدة ثوان:

"السيارة تنتظرنا بالخارج."

ذهبا معاً إلى الخارج ، وعندما حاول السائق أن يساعده اعترضت هي وصممت أن تسنده بيدها مما أذهله ذلك ،وحاول الاعتراض أيضاً ولكن قابل تصميماً بشكل غريب منها ،دخل السيارة وجلست بجانبه مبتسمة ، وتحركت السيارة في طريقها حتى وصلت للمطعم بعد نصف ساعة تقريباً.

قالت بصوت خافض :

"انتظرني هنا لدقائق "

تعجب ثم أجابها بشك:

"لماذا ؟"

منعته من الحديث بإشارة من إصبع يدها وقالت:

"اليوم سيسير وفق رغبتي ولا أريد اعتراضاً منك. "

رفع حاجبيه تعجباً وتحدياً وباغتها بثقة:

"لا تستطيعي منعي. "

ترجّلت من السيارة وابتسمت ابتسامة عذبة ،ثم دخلت المطعم ،وحقًا تعجب من أمرها ،بماذا تفكر؟ ،وماذا ستفعل ؟

بعد عدة دقائق مرت عليه أطول بكثير أتت بوجه مشرق ، وسندته حتى ترجّل من السيارة ويستند على قدمه الأخرى ،وأخرج السائق المقعد المضموم على نفسه وفتحه حتى يجلس عليه راكان ،ثم حركت مقعده لاتجاه حديقة المطعم .

سألها بدهشة:

"هذا ليس الباب الرئيسي ،إلى أين تذهبين ؟"

لم تُجْبه واستمرت في الحركة حتى وصلت لطاولة مُعَدّة بطريقة رائعة وعليها حلوى عيد ميلاده ، لم يفهم ما يدور ونظر لها بعدم فهم حتى ابتسمت هي ، وأخرجت هديتها من حقيبة يدها الصغيرة وهي عبارة عن ساعة من نوع فاخر، ذات لون بترولي غامق يحوطه اللون الأسود، وقالت وهي تضعها بيده وتخلع الساعة القديمة:

"راكان.. كل عام وأنت بخير.. اليوم عيد ميلادك."

نظر للحلوى بتيه ، وتدق بجانب أذنه نغمات غريبة من الذاكرة ،ووجوه بدأت تتضح ثم نظر لها وقال:

"كيف علمتِ بهذا الأمر ؟"

جلست أمامه تحت أضواء الشموع وضوء القمر وقالت:

"أخبرتني سوزانا اليوم عبر اتصال هاتفي إن اليوم هو تاريخ مولدك وسيحتفلون به غداً عندما يحضرون"

أضاف راكان:

"هل اتصلت بك سوزانا اليوم ؟"

ردت وهي تأخذ قداحة وتضيء الشموع الملتفة حول "كعكة "عيد الميلاد وقالت:

"نعم ، بعد أن ذهبتُ لأعد طعام الغداء اتصلتْ بي وأخبرتني ، وحتى لا تشعر بالحيْرة هي كانت تعلم أنني هنا منذ فترة وكنت أطمئنهم عليك وذلك؛ لأنك ترفض الرد عليهم أغلب الأحيان."

ارتفع لهيب نار الشموع قليلاً ونظرت له بدقة وكأن هذا اللهيب هو الخط الفاصل بينها وبينه الذي قلب حياتها رأساً على عقب ،ثم تنهد بحدة وقال:

"الوجوه تربكني ، كلما نظرت إليهم أرتبك ،أشعر بثقل يخنقني ، أعرف أنهم عائلتي ووجوههم مألوفة لديّ ولكن هذا ليس كافٍ."

هتفت معترضة:

"راكان.. لا سبيل للحزن اليوم ،اليوم تفرح فقط ، تتذوق قطرات غيث الأمل من بين براكين الألم ، حتى تعود ، حتى تقود جيوش أفكارك من جديد وبحار ذهنك المحتلة من عدو الفقد والنسيان ،أنصت لصوت الأمل.. أرجوك."

الفصل السابع عشر

"حفلة عرس السندريلا"

تجاهل طنين اليأس الذي يوسوس كالشيطان ،وباعد هضاب القسوة حتى لمع ضوء الشروق على أمواج العشق بعينيه وترك مراسيل النظرات، تبعث حنينها وتبث رحيق أشواقها.

تحدث بهدوء وتّرها:

"كل عام وأنتِ معي "

كان خلف هذه الجملة صدى آخر يتردد بداخله ويعلو الهُتاف في شِغاف القلب بكلماتٍ أحبهنّ:

"كل عام وأنتِ حبيبتي. "

تلعثمت وتألمت فهذه آخر ليلة سيراها فيها ستخبره بآخر فصول رحلته، ولكن فقدان الصفحة الأخيرة سابقاً حكم عليها بالرحيل الآن ،لابد أن يتأثر مثل ما تأثر سابقاً؛. هنا سيجبر القلب إشارات العقل المتعطلة، سيأمرها حتى تتكلم حتى لا يتألم من الفراق.

طلبت منه الاستماع حتى إن لم يرغب ذلك وروت له آخر صفحة في مذكراتها ،عندما دفعها حزنها للنزول تحت المياه وكادت أن تغرق ، وراقبت انفعال وجهه وهو يحرك مقعده حتى يذهب ؛ نهضت واقتربت منه لتعرف ما حدث والأمل طفا بداخلها ؛ تقلصت عضلات فمه حتى

تهَكّم وجهه ثم تَلَعْثم وصاح وهو يضع يده على وجهه وكأنه يريد إبعاد شيء من أمام ناظريه ، شيء مؤلم مثل اليد التي تنشب أظافرها في الجسد ،زجر بعنف:

"أريد العودة للمنزل ،لا أريد الاستماع أكثر.. أرجوك ."

أخفت طيف الأمل بلمعة عينيها ، ثم ذهبت به للخارج وقد دفعت حساب المطعم سابقاً ،أما هو لم يتذكر ذلك من شدة ما يعانيه في هذه اللحظة. ، خلال طريق العودة سبحت نظرته في ظلام السيارة وهو متأمل في الفراغ أمامه.

ألقت عليه بعض النظرات الجانبية وهي تتألم لأجله ولكن لابد من ذلك ، فالدواء مر ولكن به الشفاء ، وعادت السيارة بهما مثلما أتت ، ودخل المنزل بوجه يضجّ ألماً لم يعرف مصدره ، وهي بجانبه تراقب أي شعاع أمل لعودة ذاكرته.

حرك مقعده ودخل غرفته وتركها ، صعدت الطابق الثاني وجهَّزت حقائبها للذهاب ، ومن بين أغراضها الخاصة بحقيبتها الصغيرة ، رفعت خاتم زواجها ودبلته التي استلمتها سوزانا بعد الحادث من المستشفى؛ بسبب دخوله غرفة العمليات وضمتهم بقوة ثم حفظتهم بالحقيبة مرة أخرى ،واتجهت لفراشها واستسلمت للنوم.

ظلّ يتنفس بصعوبة والوجوه التي كان يراها في كوابيسه بدأ يتضح ملامحها حتى لو بشكل بعيد ،ولكن هناك عاصفة تعترك بداخل عقله وتؤلمه بشدة ، أحاط رأسه بكلتا يديه وهو يتأوه من الألم ،ولم يجعله ذلك الصداع الشديد أن يغفو ولو لساعة واحدة طيلة الليل.

استيقظت هي لتفاجأ بوجهه الذي يبدو عليه الإرهاق ، ولكن أدركت السبب وذهبت بصمت؛ لتستلم وجبة الإفطار مثل كل يوم وفرَّت دمعة عندما تذكرت كم ألّحَت في الدعاء في قيام ليلة هذا اليوم ، ورفعت يدها برجاء ومُناجاة لرب العالمين أن يجعل ما تتمناه يتحقق ، لمحها من بعيد وهي تدعو وشعر بمدى تقصيره ، ذهب إلى غرفته ، وتوضأ وهو يستند على العكاز ثم جلس على المقعد وبدأ في أداء الصلاة.

غرقت عيناه بدموع من هوْل ضعفه ، وناشد رب العالمين أن يفك هذا الكرب ويعود لنفسه ،وقفت تتأمله بحنان وهي ترى خشوعه في أداء الصلاة ، وتابعت دعاءه بدعاء من قلب صادق يتمنى شفاءه.، بعد أن أنهى صلاته ،مسح عينيه ،وانتظرت هي عدة دقائق ، ثم دخلت بصينية الطعام ووضعتها أمامه على الطاولة.

وبدأ يأكل بنَهَم بشكل جعلها تبتسم ، وتذكرت تلك الليلة التي مرت عليها ،وكانت تشبهه بشكل كبير في ضعفه و تشوش ذاكرته ، تذكرت كيف أن سجدة أحيتها من جديد ، سجدة توسلت فيها لرب العالمين واستجاب من صدقها ،أكيد سيستجيب الآن وكيف لا وربها أرحم الراحمين.

انتبهتْ لصوت وقوف سيارة بالخارج وتوقعت الزائر ، أسرعت لتفتح باب المنزل لتقابلها ابتسامة سوزانا وعامر ومعهما الطبيب ، رحَّبت بهم سكنان وأخذت" سوزانا" بعيداً وسألتها عن والديَّ راكان ، بينما أخذ عامر الطبيب إلى راكان ، أخبرتها سوزانا أن والديها في الطريق إلى هنا ولكن هم أتوا مبكراً بسبب وجود الطبيب معهم ، وشرحت سكنان آخر خطواتها اليوم حتى شهقت" سوزانا "وصاحت :

"سترحلين ! لا.. هذا خطأ"

اعترضت سكنان وقالت :

لا سوزانا ليس خطأ ، راكان تأثر جدًا عندما لم يجد آخر ورقة في مذكراتي، وثار عندما لم يجد طرف خيط يصل به إليّ ،لابد أن يحدث ذلك مرة أخرى ، وخصوصاً أنه بدأ بالفعل يتذكر ، هذا تأكدت منه بالأمس ،لابد أن يثور هذه المرة ،هذه الثورة هي الحل الوحيد ؛ انكمش حاجبي سوزانا وساد وجهها الحيرة:

"هل تعتقدين ذلك ؟ أخاف من صدمته بعد رحيلك."

هتفت سكنان:

"وهذا ما أريده صدمته ،انفعاله ،ثورته ؛حتى يفيق مما هو فيه ،كل ما أريده منكِ سوزانا ،أن تساعديني. "

وضعتْ سوزانا يدها على كتفها بدعم وقالت مؤكدة:

"أخي عثر على زوجة رائعة ، سأظل طِيلة حياتي أشكر الله على ذلك، وسأفعل أي شيء تطلبينه مني."

ابتسمت سكنان بمحبة وشرحت خطتها كاملة ، ثم تركت سوزانا تذهب لأخيها، ذهبت سكنان إلى غرفتها رافضة أي ظهور لها الآن ، وضعت اللوحة التي رسمها لها سابقاً وبجانبها المذكرات والدبلة الخاصة به عليها ،ثم جلست تفكر بتوتر وخوف ،إذا فشلت هذه الخطة ستكون النتائج أسوأ مما تتخيل ،خصوصاً أنها ستضع الحقيقة أمام عينيه الآن ويكشفها.

أنهى الطبيب عمله بعد معاناة في فك الجبيرة لضخامة حجمها ، مسّد راكان قدمه بيده واستمر يحركها بعد هذا الركود حتى لانت مع الوقت وبدأ يسير عليها بشكل أفضل ، هتف باسم سكنان ولم تجب.

كان الوقت قد مرّ ، لتأتي ساعة الغروب وكأنها البرزخ الذي يفصل ضوء النهار عن ظلام الليل ، تعجب من عدم ظهورها منذ فترة كبيرة قد أخذه فيها الحديث مع شقيقته وزوجها الذين استثمرا هذا الوقت للتحدث معه أكثر، ومحاولتهما لتذكره أي شيء ، حتى نهض بنفسه وصعد بقدم لا زالت ثقيلة عند المشي ، وفتح غرفة ولم يبدُ أنها هي غرفتها ، لأول مرة يشعر بهذا الغباء ،لم يسألها أبداً بأي غرفة تجلس وتذكر فجأة عندما رآها في الشرفة وهو على الشاطئ.

فتح الغرفة الأخرى وانتقل بنظره في أرجائها حتى لمح لوحة وبجانبها حقيبة دفتر تعجب من الأمر واقترب بفضول وأخذ" الدبلة " ، ورفعها أمام ناظريه وأحس بشيء غريب وكأنه رآها قبل ذلك ، أدار اللوحة لوجهته حتى صُدِم منها وملامح صورته وصورتها تتراقص أمام عينيه بحدة كالأشباح ؛ توترت أعصابه بعنف ، ونظر لحقيبة الدفتر بريبة ثم قرر أن يفتحها ، وفتح أول ورقة وكأنها أول شعاع النور الذي بثَّ نوره إلى ذاكرته ، استمر يقلّب في الصفحات بأنفاس متسارعة وكل صفحة يفتحها تفتح صفحة مظلمة بعقله وتنورها ، حتى حرك الصفحات بعصبية وظهر هجير النار بعينيه والتهب حتى وصل لصفحة غرقها في الماء ،اتسعت عينيه بذهول، إذاً هذه سكنان وليست صديقتها كما قالت!

"هذه سكنان! "

ظهر الرعد أمام عينيه وهو يشعر بدموع القلب تجذب صفحات الذاكرة لتعاتبه ، طمس غَيْم الألم عينيه ثم انتفض ، وركض إلى الشاطئ وبيده الدفتر ، رآها..

رآها وهي تجلس على نفس الصخرة وكأنها تنتظره ، والتفتت له بنظرة مودعة ، ثم نزلت إلى المياه ، صرخ بأعلى صوته:

"سكناان ،توقفي ، ليس بعد أن تذكرت"

سقط الدفتر من يده وركض إلى الشاطئ ونزل المياه ليجدها ، اختفت هي خلف الصخور ، ثم خرجت دون أن يراها ، دخلت المنزل من باب آخر ، ولم تستطع أخذ حقائبها لضيق الوقت بعد أن بدَّلت ملابسها في دقائق قليلة وذهبت، ذهبت دون أن تعرف أنه تذكرها وعادت إليه ذاكرته بأكملها ، وآخر ما سمعته هتافه الحاد وهو يناديها باسمها ، كان في مخيلتها أن الأمر سيتطلب وقتاً أكثر من ذلك حتى تصيب ثورته هدفها.

"بعد مرور أسبوع "

يفترش أيامها آهات العذاب

لعشق أسطوري مر عبر جدران المنطق ليسهم في كل نبضة تعانق قلبها ويسيل منها دماء الصمود لتعود وهي مُسْدلة القوة وتنطوي بين قوافل الضعف محملة على هودج إرثها من أرض عذاب العشاق.

دَلَفَت الطبيبة إلى منزلها ودخلت غرفة خصصتها لسكنان وبيدها جريدة رأتها بالصدفة في المستشفى وصاحت :

"سكنان ،هل رأيت هذا الخبر ؟"

اعتدلت سكنان بوجه حزين على فراشها ، وقالت متلهفة:

"أي خبر ؟"

أخذت الجريدة وقرأت شيئًا أدهشها" : قُتِل خالد بواسطة شقيق فتاة وعدها بالزواج سابقاً ، ولم يفِ بوعده بعد خروجه بكفالة ضخمة من حبسه ، واعترفت الفتاة أنها اكتشفت أن خالدًا كان خلف الحادث الذي لحق بالرسَّام المشهور راكان فخر الدين ، وذلك بعد أن سمعته في أحد المرات يتحدث مع شقيقه حول هذا الأمر، وحاولت أن تهدده بأن تكشف سره ولكنه كان أكثر جبروتًا من أن يعترف بالخطأ ورفض الزواج منها، مما جعل شقيقها يفقد صوابه ويفعل ما فعله ، وتم القبض على شقيق القتيل وشقيق الفتاة وتجري محاكمتهم "

وضعت الجريدة جانبًا ،وقالت :

"لا شماتة في الموت ، ورغم ذلك يصعب عليَّ مسامحته أما هي فإني أعرف جيدًا أنها ستأخذ مسامحتي لها في يوم ما"

وافقتها الطبيبة وقالت:

"نعم ، هذا جيد ، هو الآن في ذمة الله وسيحاسب على أفعاله."

ثم تأملتها وقالت باستياء:

"هل قررت شيئًا في أمر راكان ؟ أبعدت نفسك تمامًا عنه حتى أنا جعلتني أغير

رقم هاتفي؛ حتى لا يتصل بي أحدٌ منهم بما أنهم لا يعرفون عنواني، البعد ليس الحل سكنان"

تنهدت سكنان بشدة وسيْل الاشتياق لرؤيته يغرقها ، كل يوم تقرر أن تهاتف شقيقته "سوزانا "ولكن تخاف أن تضعف وتذهب له عندما تعرف حالته ، ستتحدث مع سوزانا بعد عدة أيام وليس اليوم.

لمحت فاطمة" الطبيبة "شيئًا في الجريدة جعلها تلتقطها بسرعة، وتتأملها على الوجهة الأخرى من حادثة" خالد."

وهتفت مجددًا:

"سكناااان.. راكان." !!!!

اتسعت عين سكنان بلهفة وقالت:

"ما به ؟"

وضعت الجريدة بابتسامة بين يدي سكنان وهي تراقب تعبيرات وجهها الذي تصاعدت به الدماء ،رفعت رأسها ونهضت بفرحة:

"حفل زفاف ، ينتظرني ، أقامه لأجلي وقد عادت ذاكرته ،عادت ،لا أصدق فاطمة ، لا أصدق"

ضمتها فاطمة وقالت بسعادة:

"مثل ما انتظرك سابقاً في المعرض وأقامه لأجلك ينتظرك الآن وأقام حفل العُرس مجدداً وهو ينتظرك؛ لأنه متأكد أنكِ ستأتين بمجرد أن تعلمي. "

اتسعت الابتسامة على وجه سكنان التي دبت به الحياة مرة أخرى وقالت:

"سأستعد لأذهب إليه وأنا العروس السندريلا مثل ما تمنيت سابقاً"

ضمت الجريدة بقوة وهتفت:

"أحبك راكان.. أحبك زوجي."

في الليل دخلت سكنان ومعها فاطمة مرهقتين من البحث عن الرداء المناسب لحفل عُرسها ، وتجهزت العروس لعُرسها في الغد.

كان يقف خلف نافذته ينتظر غدًا بلهفة ومتأكدًا أنها لن تخذله ، ابتسم بحنان واشتياق مجنون ، ثم استدار وأخرج الرداء الذي بدلته قبل أن تذهب ، ابتسم بمحبة عندما تذكر اعتراف سوزانا بمخطط سكنان بالكامل وهمس بحنين واشتياق:

- ستأتي غدًا .. يا عشق قلبي.. ستأتي .

أنتظرك.. وأنتظر رؤية عودة قلبي بعينيي.

أنتظرك.. وترتمي بين ضلوعي وتتنفسي دفئي وهواي.

أنتظرك..أنتظرك يا سندريلا قلبي وعشقي وسكناي .

رياح عشقك اجتاحتني.. عادت بي وأنا منتصر

جعلتني الأمير المُنتَظِر..

أنتظر غداً وأنا متلهفٌ..لنظرة عينيك العاشقة.. لدفء عشق يبث أسهمًا مارقة.

برداءٍ أبيض سترقصين معي وتضيع أناملك في خطوط يدي ،شعرك سيتدلى على

كتفي ويغفو ،ويحتوي قلبي وجهك يا ساكنته ويطفو..

يطفو أعلى شعاع حنينه ويسهم بعينيك المحاطة بسماء الكحل المظلمة .

"أطلّ الصباح وهلّ ورحل الألم وعاد الأمل "

استيقظت صباحًا وهي تبتسم بشكل لا إرادي ، نهضت وتوجهت للحمام لتغتسل قبل أن تذهب" لصالون التجميل " ، لمحت وجهها عبر المرآة، فجأة توقفت واتسعت ابتسامتها عندما لاحظت حُمرة خديها وإشراق وجهها الذي فقد بريقه في الأيام السابقة ، ثم أكملت طريقها للحمام.

أخذ الوقت معها حتى تستعد بشكل نهائي ساعة كاملة حتى كانت في طريقها إلى الصالون ومعها صديقتها فاطمة ، التي لم تتوقف عن الضحك طوال الطريق.

وصلت إلى الصالون في تمام الساعة التاسعة صباحًا، ثم ترجَّلت الفتاتان وبيد "فاطمة " حقيبة بها فستان زفاف السندريلا ، مرور الدقائق يمر عليهم ببطء وكل منهما مشتاق لرؤية الآخر.

هو : كاد أن يدفع عقارب الساعة بيده حتى تسرع ، ولا تجعله ينتظر أكثر من ذلك ،بعد بحثه عنها كثيرًا ولم يجدها، بحث إلى أول طريقة جعلتها تأتي إليه بقلب استشعر أمواج العشق عن بُعد.

هي: منسوب القلق يتساوى مع كم السعادة بداخلها ،وكلما تخيلت لحظة اللقاء يبتسم حلم سندريلا الطفولي الذي هتف الآن بنصر" : الحلم تحقق"

وأخذ تجهيزها كعروس بعضًا من شرودها وتوترها ، حتى أتت الساعة السابعة مساءً وكانت قد تجهزت تماماً . أخذتها فاطمة مع تعجب الفتيات العاملات بنظرات متسائلة:

"أين زوجها ؟"

دخلتا السيارة وجلست فاطمة بمقعد القيادة وذهبت ، وكل دقيقة تمر تزيد قلبها دقات متسارعة ، لم تستطع التحكم بهدوئها ،حتى وضعت سكنان يدها على قلبها ، لمحتها فاطمة من مرآة السيارة ،ابتسمت وقالت بلطف:

"هناك سعادة كبيرة تنتظرك حبيبتي لا تضيعيها بقلق زائد لا لزوم له، لو تعلمين كم الفتيات اللواتي يتمنين أن يجلسن بمقعدك بجانب راكان اليوم لتعجبتِ ، زوجك رائع سكنان ويعشقك."

أردفت سكنان بالقول بنبرة ناعمة رقيقة مفعمة بالحب :

"لم أصدق أنني كنت سأحب رجلاً هكذا ، شعوري أكثر من الحب ، إلى الآن لم أستطع التعبير عنه بقدر قيمته."

فاطمة بسعادة:

"يحفظكم الله من كل شر ويحفظ هذا الرابط بينكم"

أمَّنَت سكنان على دعائها بصمت ولكن قلبها يهتف بتمنّي ،وصلت سيارة فاطمة بالقرب من القصر ولكن الطريق مزدحم بالسيارات ،تأفّفَت فاطمة وقالت :

"الطريق مُكْتظ بالسيارات. "

توقفت وهي تسمع ضحكة سكنان واستدارت بتعجب حتى صُدِمت وهي تراها تترجَّل من السيارة مسرعة . هتفت باستغراب:

"إلى أين ستذهبين؟"

وقفت سكنان بالخارج أمام نافذة السيارة ، ودَنَت منها وقالت بوجه يضحك:

"كنت أعلم أن الطريق سيكون هكذا ، كالعادة عندما نقترب من بعضنا، سأذهب وألحقيني فاطمة فالطريق سيظل هكذا لوقت طويل"

ثم ركضت وهي تحمل فستانها من الأمام حتى تتحكم في خطواتها ولا تتعثر.

أنهى راكان كل شيء ورحَّب ببعض الحضور، ثم جذبته سوزانا من يده وقالت بشك :

"إلى الآن لم تأت راكان ! ،ماذا لو"...

قاطعها بتأكيد:

"ستأتي.. ستأتي بالتأكيد ،لم أخطئ سابقاً فكيف سيخطئ شعوري الآن . سكنان لن تخذلني أبداً"

ارتسمت بسمة محبة على وجه سوزانا وقالت:

- سأذهب وأراقب بالخارج وعندما ألمحها سأفعل ما خططنا له، ثم ذهبت مسرعة وتركته وعلى وجهه تتعارك تعبيرات الاشتياق.

وصلت سكنان إلى بوابة القصر ودخلت مباشرة، حتى لمحتها سوزانا بوجه يضج سعادة وأخذتها بين ذراعيها بحب:

"كم اشتقت لكِ يا فتاة ،سأعاتبك على ما فعلتيه ولكن ليس الآن ، قابلتها سكنان بنظرات متأسفة وقالت:

"كنت خائفة من مواجهة الفشل ولم يتبق لي أي شيء أواجهه به بعد أن أدرك كل شيء عني، لم أعرف صدقيني أن الذاكرة قد عادت له غير الأمس"

جذبتها سوزانا إلى ممر آخر بعيداً عن الجموع ويؤدي إلى الطابق الثاني وأدخلتها غرفة بآخر الممر ، وقالت:

"استعدي هنا حتى أجهز كل شيء بالأسفل."

ذهبت دون أن تترك لسكنان مجالاً للنقاش ، وبعدها ألقت سكنان نظرة معاينة على زينتها ولم تلاحظ أي خلل ،بل زاد وجهها احمرارًا بسبب شدة التوتر والفرحة معاً .

عدة دقائق مرت حتى انطفأ نور الغرفة فجأة ؛ارتجفت وحاولت أن تتحرك وهي تتذكر اتجاه باب الغرفة وخطوة بعد الأخرى وانفتح باب الغرفة بنور قداحة خلفها عينان تعرفهما جيداً،عينان هي سبب سعادتها الآن، يقف عند مقدمة الباب بقامته الطويلة ويرتدي بدلة رائعة زادت وسامته بشكل مضاعف وجعلته كالأمير حتى قرب قداحته من شمعة موضوعة بجانبه على طاولة بجانب الباب بشكل يؤكد أن كل شيء مرتب له من قبل ،وضع قداحته بعد أن أشعل الشمعة التي أنارت الغرفة بشكل ساحر ،واقترب خطوة تلاها خطوة أخرى حتى فتح ذراعيه لها، ركضت إليه بقلبها وارتمت بين ذراعيه وهي تردد اسمه برقة ،ضمها بقوة أخنقت ضلوعها وهمس بجانب أذنيها بدفء:

"سكنان.. حبيبتي... وزوجتي.. اشتقت إليكِ بجنون.. إني أعشقك.. أعشقك"

وكررها على مسامعها بِهَمس لعدة مرات وسكن وجهها بين يديه وتأمل عينيها عن قرب، وقال:

"رغم ما مررنا به ، لكني محظوظ لدرجة لم أكن أتوقعها ، أردت أن أبدأ بهذا العشق معكِ ،أردت أن أبدأ بتلك النظرة بعينيكِ ، لا بنظرة متشككة في حبي ،أردت قوة هذا الرابط بيننا ، أحببت بل عشقت تلك الأزمة التي مرت بنا وكأنها تؤكد لنا أنَّ كل بلاء بداخله جزاء عظيم، أنت الآن زوجتي ،حبيبتي التي تبادلني بنفس قوة العشق لا بشيء من التشكك والريبة رغم إعجابها بي.

لمعت دمعة بعينيها وهي تقول بقوة:

"أحبك راكان... أحبك وأعشقك ولا أعرف أي منا يحب الآخر أكثر"

قبّل رأسها بحنان وقال:

"أحبك الآن وأنا راكان الرسام المشهور، وأحبك وأنا راكان فاقد الذاكرة والتائه"

ثم حملها بين ذراعيه وخرج من الغرفة وبعد دقيقة عادت الإضاءة؛ لتشهق الفتيات متفاجآت بالذي يحمل عروسه أمام الجميع ويهبط درجات السلم وعينيه لم تفارق عينيها، ثم أنزلها وأشار بيده للموسيقى والإضاءة.

غمزت فاطمة وسوزانا من بعيد لسكنان ثم تشاركتا في الضحك عندما أشاحت بوجهها من الخجل ، ونظرت سوزانا لوالديها بمحبة وهما يراقبان سعادة ابنهما الذي عاد من تيهانه بمساعدة هذه الفتاة الرائعة.

بدأت الموسيقى وشاركها رقصة بطيئة تحت ضوء مسلط عليهما وسط ظلمة محيطة، وجعلها التاج المثبت على حجاب رأسها وفستان الأميرات كالسندريلا التي أصبحت أميرة.

همس بجانب أذنيها وقال بسؤال بَدَر في ذهنه:

- مَن أنا بالنسبة لكِ ؟

ابتسمت ابتسامة عاشقة دافئة:

"زوجي الذي أعشقه ، الأمان والحنان"

ثم تابعت:

"ودعوة في أوْج ضعفي سقطتْ بدموع من عيني لرب السماء واُسْتُجِيَبت"

رفعها ودار بها بسعادة وهو يضمها بقوة مع هتاف الحضور :

"سكنان أم أنت في القلب سكناك "

"هنا السندريلا لم تحارب وتنتقم من الذين ظلموها فقط، بل حاربت الضعف واليأس بالصبر والإيمان وأدركت أن العدو الحقيقي للإنسان هو ضعف عزيمته وقلة مستوى الهِمة والإرادة الذي يَفْتك بطموح وحياة البشر ، فالمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف.

حروف من نور

١٠ برج الاشراف شارع الهداية المريوطية فيصل الجيزة

"جمهورية مصر العربية"

الايميل yavinour@gmail.com

ت/ ٠١٠٠٨٢٨٩٦٦٧ (٠٠٢)